

لاعب الشطرنج

تأليف

ستيفان زفايج

و قصة

طونيو كروجر

تأليف

توماس مان

8

ترجمة يحيى حقي

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية





قصتان من الأدب الألماني

لاعب الشطرنج

تأليف : ستيفان زفايج

طونيو كروجر

تأليف : توماس مان

ترجمة : يحيى حقي



اهداء الكتاب

الى صديقى وأخوى

الدكتور نعيم عطية

والأستاذ سمير وهبى

لمـــا أسعدانى به من محبة ووداد ..

يحيى حقى



مقدمة

عما قليل ستتهادى اليك من قصص الغرب العريقة اثنتان لا واحدة فحسب يا عم ، كنت قد ترجمتهما منفصلتين ، الأولى قديما والثانية حديثا ، فكان عطاء كل منهما قاصرا على قيمتها الذاتية غير متجاوز لاطارها ، فلما أريد لهما أن يجتمعا بين جلدتين اذا بهذا العطاء يفيض ويتضاعف ، فقد أصبح هذا الكتاب بفضلهما — وان بغير سعى منهما — صالحا للتعريف ببعض ملامح الأدب الألمانى المعاصر ، متمثلا فى اثنين من أكبر أئمته وأوسعهم شهرة عالمية هما استيفان زفايج وتوماس مان ، صالحا أيضا للتعريف ببعض خصائص شكل فريد من أشكال الفن القصصى هو أطول من القصة القصيرة وأقصر من الرواية الطويلة ، نسميه أحيانا أقصوصة وبعض الناس يحبون هذا الشكل لأن الحكاية فيه تكون محبوكة ، ملمومة ، مشذبة ، لا يبقى منها الا الجوهر فيتلألأ اشعاعه ، ومن عجب أنه غير شائع عندنا ، ولست أحب أن يقاس الفن بمقياس مادى ، كالحجم مثلا ، فى القصة واللوحة والقصيدة ، انه مقياس خاطىء ومضلل ، العبرة هى فى التناسق والالتحام بين الشكل والمضمون ، ينشأ منهما نبض خاص بكل شكل ، حينئذ تدب الحياة فى العمل الفنى ويتسم بالصدق والقدرة على الاقناع . وينشأ نبض الأقصوصة من توفيقها فى الجمع بين الاستيعاب بلا فضفضة والاجمال بدون تضحية بعناصر جوهرية لا حبا فى هذا التوفيق

فحسب ، بل لأن الموضوع يستلزمه اذا كان المطلب هو ارضاء الفن والنزول على حكمه ، ولماذا أقحم رأيا لى عليك ، سأخلى بينك وبين هذا الكتاب لترى بنفسك نبض الأقصوصة وخاصة فى « لاعب الشطرنج » من تأليف استيفان زفايج . أما الآن فدعنى أحدثك عنه قليلا .

لا أحسب أن ناشئا فى الأدب يصادق استيفان زفايج الا أحس لتوه أنه وقع أسيرا فى قبضته ، لا مفر له من أن يتأثر به ، سعيه بعد ذلك ان ينحرر منه ليهتدى الى سليقته ، لابد له ان يقرأ كل حرف كتبه ثم يقول هل من مزيد ، اننى اتكلم عن تجربة ، هكذا كان حالى ، لا أخجل من الاعتراف بأننى كتبت قصة (البوسطجى) فى شبابى وقت أن وقعت أسيرا فى قبضة زفايج حين صادفته فى طريقى ، أسرنى كما يأسر كل قارىء ولا ريب بصفة غالبة على جميع مؤلفاته . سواء فى القصة أو السيرة أو التاريخ أو الرحلات ، هى الاتقاد والجيشان ، اتقاد يحيل الحديد الغليظ الى كتلة شفافة من لهب ، وجيشان كالنافورة المتوثبة التى لا ينضب فيضها ولا يضعف اندفاعها ، متلاحقة ، بعضها آخذ من بعض ، وهى فى كل الأوقات من قوام واحد ، مذهلة قدرته على الجمع بين الاستمرار والتجدد ، بأى خطو سار ستشعر انك تلهث جريا فى تتبعه ، تتمنى أن ينتهى مشوار تتمنى الا ينتهى ، فاذا فرغت منه أحسست بشبع تحسب انك لن تعانى بعده من جوع مهما صمت ، أحسست أيضا — صدقنى — بشىء من التنميل يمس أعصابك بألم لذيذ ، ألم تكن تجرى طول المشوار ؟ تحس بشىء من الخجل والغيظ لأنك تعريت ، كأن يدا قد نفضت عنك

ثيابك واندس منها ألف اصبع الى دخيلتك تفتش عن أسرارها وتكشفها ، بل تعرفك بها ، فقد كنت تجهلها لأنها مطوية فى ظلام جوفك ، ولكنّ التفتيش تم على وهج كتلة اللهب الشفافة ، أصبحت العواطف فى قلبك قادرة على بلوغ نهايتها القصوى ؛ الحب الى ذروة الوله والهيام ، والنفور الى غاية من الكراهية والبغضاء ، تتفجر هذه العواطف لأن مشرط زفايج قد مزق ركودها فى قلبك ، يمنحك متعة الشبع عند النهاية ، ولكنه يحرمك أيضا من متعة تأمل كل فقرة على حدتها لأنك تجرى وتلهث ، كأن كل فقرة نفخة متجددة فى الأتون لكى يزداد التهابا ، وهذه هى أهم سمات العمل الفنى ، الفقرات لابد أن يكون لها نبوغها وعبقريتها استقلالا ، ولكنها تذوب فى الكل حتى نكاد لا ننتبه لها، ومع ذلك اذا حذفت واحدة منها أنهار البناء أجمعه .

وسط هذا الاتقاد تنصهر الألفاظ وتتحول اللغة من العموم الى الخصوص ، وتخاطبك بلسانين : الافصاح والايحاء ، المباشرة والكناية ، ، الحق والاستعارة ، بل يتحقق لها المستحيلْ ، الجمع بين النقيضين ، طابع الألف والحرية ، كأن كل الناس هكذا يتكلمون ، وطابع الرق والاستعباد لأنك تعدلها أو قل تشوهها لكى تفى بغرض نفعى مستبد فى سياق لا يطابق الواقع ويُزعم أنه الواقع ، حوار أبطال القصة صادق ولكن لا أحد فى الدنيا يتكلم مثلهم فى حال كحالهم، لابد من الاختزال الجبرى والبتر بلا حسرة لملء قوالب محددة يستقل بها العمل الفنى ، وشرط الا يبين طابع من طابع ، الفن لغة تنسيك صراحتها إنها شفرة سحرية ترمز — كما فى الاسطورة — الى سر الباطن

من تحت الظاهر وتوحد الكائنات تحت ستار من الشتات هكذا لغة الفن ، لغة زفايج ، لا يسمح انتقادها لبصمات البلاغة وقواعد النحو أن تجلجل فتصم الأذن ، أو أن ترشق العين فتفقؤها ، الالتحام يتحقق من وراء ظهر أدوات الوصل والعطف كأنما بالرغم منها لا بفضلها ، والسلام متبادل بين الأسماء والأفعال والحروف .

وليس هذا فحسب ، أن أسر استيفان زفايج لقارئه راجع أيضا الى نزعته الإنسانية الجارفة ، لا ينقص من قدر الانسان عنده أنه ضعيف ، هو يعريه ولكن لا يسخر منه ، لا أعرف مثله كاتبا عظيما خبيرا بأسرار النفوس وأقنعة الخداع ، برأ قلمه تمام البرء من السخرية ، ما أقوى اغراء السخرية لكاتب يتأمل البشر من عل لا للترفع عنهم بل لاستيعابهم ، ومن عجب أن السخرية رغم زعمها أنها وليدة حس مرهف غض الذكاء تنم بالعكس عن الجفاف أو تهدد به ، سلم منها زفايج حتى فى خريف عمره ، مطلبه هو فهم الانسان لا الحكم عليه ، انه يتركه كما تناوله ، كما التقى به ويودعه ! ريشة فى مهب الريح تصارع وحدها مصيرها ، هذا الكاتب فى حديقة الأدب الألمانى شجرة حور متوثبة ، نافورة من خشب ، سامقة ، جذع رشيق يدق كلما علت ، فلا تنبت الأغصان الا قرب تاجها الشامخ وهى قليلة ، كأنما جعلت ليفرد عليها شراع مشتاق الى بحار مجهولة ، هيهات للآثم الضال أن يجد تحتها ظلا أو نفحة من أمل ، انها ترمقه بعين فاحصة ثم تتركه فى الهجير لقدره ، هيا به الى الظلل الوارف تحت شجـرة سنديان ، غليظة الجذع ، دحداحة ، رحابة الصدر عندها أحب من ارتفاع الهامة ، فاحشة الثراء بأغصان ملتفة ، دانية ، دائرة ، كأنها

قبة محراب ، توحى بالسكينة والحكمة ، هى شجرة جوته ، التقى بفاوست وهو هاو الى الجحيم ولكنه لم يتركه الا بعد أن فتح له باب الأمل فى رحمة الله وغفرانه اذا صدق ندمه وصحت توبته ، فى رسالتها وهى برد وسلام ونفح للروح .. بعد سنين عديدة سيبقى جوته فذا كما كان ، على حين قد يظهر لزفايج أنداد كثيرون .

هرب استيفان زفايج فى قصصه من رافعى لواء الطقوس والفلسفة والحكمة والتاريخ ليلوذ بحضن الفن وحده ، هو خلاصة الجميع ولكن لا يستبعده أحد ، هو الكلمة الأخيرة التى كانت على ألسنتهم كلهم ولأمر ما لم ينطقوا بها ، لا عجب حين نطق بها الفن أن كان لها جرس الرقى والتعاويذ ، قابلة لأكثر من تفسير ، متار حيرة وخلاف ، غير مقنعة هى أيضا ، أعرفت الآن لمن الكلمة الأخيرة ؟ لمن كانت له الكلمة الأولى ..

*　*　*

الآن يؤنبنى ضميرى ، لأننى تحدثت عن الشبع الذى يحس به قارىء ستيفان زفايج وأنا أكتم شكا فى صدرى لابد لى من أن صارحك به . يثير هذا الشك سؤالى : هل فى الشبع كما فى الجوع ما هو جاذب ؟ والا فلماذا يعاودنى الان هذا الشعور الذى يتخلف عندى كلما فرغت من قراءة كتاب لهذا الساحر الآسر ؟ أتعرف الشهاب الذى يلمع فجأة بالليل ، لا ترى حياته الا لحظة يهوى قفزا كالشنوق الى حتفه متقدا متوهجا كأنه شمس تجمعت فى شرارة واحدة فاجرة ، تحسب أن أذنك تسمع أزيزها ، جميع النجوم البراقة بدت بغتة معتمة ، نخطف انفاسك فتكاد تشهق من فرط انبهارك

به ولكن كل عمره لا يزيد عن طرفة جفن ، فاذا ارتد البصر وجدت هذا الطارىء المقتحم قــد انكشط عن صفحة السماء . لأثر له ولو شبهة من دخان شاحب ، عادت النجوم العتيقة الى بريقها الثابت المتصل كأنما ليس الأهم عنده هو طول العمر والأثر بل البرهنة بخيلاء على براعته الخارقة فى جذب الأنظار والادهاش ولو للحظة عابرة يدفع عمره كله ثمنا لها ، والغلو فى استعراض البراعة افتتانا بالنفس يلقى جزاء لا مفر منه : أن يكون الأثر كالشبح الكاذب ، أخشى أن يكون هذا هو حال الساحر الآسر استفان زفايج . ما أسرع استيلاءه عليك واستبداده بك ، ما أسرع انعتاقك منه لحظة أن يتوارى عنك ، لا اذكر أن نفسى همت بى أن أعيد قراءة كتاب له كنت انبهرت له اشد الانبهار ابان خضوعى له ، انما تعاد قراءة كاتب يكون كالنجوم المتأنية الخاشع همسها اليك بمعنى الجمال والانسلاك فى الملكوت ، كان مددها من ندى أم ترضع طفلها ، لا تقصد اشباع جوعه ، بل تمنحه غذاء يسرى فى كيانه ويبنيه صحيحا على مهل .

أتكون خلة اليهود ابان الشتات هذه الشهوة العارمة لاستعراض براعة على الادهاش تبز طاقة بقية الناس، تلمسا لكبرياء يدحضون بها اذلالهم الذى جروه هم على انفسهم . شطحات كثيرة فى الفنون التشكيلية والأدب المسرحى مرجعها اليهم بدافع من هذه الشهوة التى انقلبت بعد الصهيونية الى داء يشبه جنون العظمة ، بل تجد هذه الشهوة على تعليقات فرويد ، وقد يفسر بها كثرتهم بين العازفين الفيرتيوز وقلتهم بين الملحنين المبدعين العظام ، فالفيرتيوز أبدع تمثال بجسد اعلان البراعة الفذة التى تتعمد جذب انبهارك . فاذا كان

استيفان زفايج بين العازفين هو الفيرتيوز فهل لأنه بين مصابيح السماء هو الشهاب .

يضاف الى رصيد زفايج قدرته الواضحة على المثابرة والتتبع ، انها مظهر هيامه بالكشف وظمئه للمعرفة ، ما أن يبدو له طرف خيط حتى يطبق عليه بيد صائد فاتك وحنون معا على الفريسة المسكينة ، ويظل يجذبه باصرار ورفق ، محاذرا أن ينفلت أو ينقطع أو يلتوى ، الى أن يصل مهما طال المدى الى خبيئة البكرة التى أطلقته ، تراه فى أوج قدرته لا عند العقد التى نصادفه وتوهم ضخامتها أنها عسيرة مع أنهـــا سهلة ، منتفشة لأنها هائفة ، بل عند العقد الصغيرة كرأس الدبوس ، لا يبين منها ظهر من بطن ، مبتور منها اللسان والأذرع والسيقان ان لم تسعفه أنامله فى فكها لم يتركها بل استعان عليها بأظافره ، بأسنانه ، ومن هنا نحس أن أسلوبه لا يلتهم السرد فحسب بل ينهشه نهش الغول ، هكذا يصل الى قرار النفوس فيكتشف سرائرها ، وكشف سرائر النفوس هو أول شيء بشوقه ، لا هم له غيره ، انه لا يعيش الا له ، ان انقطع عنه باخ ورذل ، بهذه المتابعة الظمأى للمعرفة قام استيفان زفايج فى « لاعب الشطرنج » بتشريحين ، فى الأول كسر جمجمة هذا الفتى الجلف الغبى الخام المعتم الذى لاعمل لجسده الا أن يحجب الضوء دون أن ينبعث منه شعاع واحد يصافح به الكون والناس فيدل على يقظة انسانيته ، كيف ولمـــاذا ومن أين تأتى له أن تتلألأ فى مخه الصدىء موهبة واحدة فحسب هى موهبة لعب الشطرنج ، فيصبح على رقعته بطل العالم المنتصر فى كل موقعة ، اذن ما هو سر مخ الانسان وكيف يعمل وهل تترابط أو لا تترابط قنواته ، ما هو سر الذكاء ،

أفمن الجائز أن ينحصر ويتخصص فى بؤرة صغيرة فى هذا المخ ومن حولها خلاء تام ، عن طريق جمجمة لاعب الشطرنج ؟ يريد زفايج أن يطل ونحن معه على مخ الانسان عامة ، ان سره يحيره ويشوقه ويتحداه ..

التشريح الثانى لنفس لا لمخ ، نفس رجل متمدن منقف متصل بالعالم أوثق اتصاله ، فعال ومنفعل ، مؤثر ومتأثر ، يريد زفايج أن يعرف التحولات البشعة التى تحدث لهذه النفس حين يحكم على صاحبها بالحبس الانفرادى فى زنزانة ضيقة ، ليس بها الا طاقة صغيرة عالية ينفذ منها نور أقرع بلا مرئيات فهو والظلام سواء ، حتى الأصوات محجوبة عنها ، ليس فيها صحيفة أوكتاب أو ورقة أو قلم ، ولا زائر ، حتى الحارس يظهر دون أن يتكلم ، كل يوم كالأمس والغد ، كل لحظة كالسابقة واللاحقة ، أصبح والأشياء المحيطة به ، الفراش والمنضدة والصحن — من شدة ألفه بها خليطا واحدا لا تدرى أهى من الأحياء أم هو من الجماد ، سترى دبيب التحطم والانهيار — قل الجنون — الى هذه النفس خطوة خطوة ، تحولات مرعبة ، ليست نفسية فحسب بل بيولوجية أيضا ، فأسر مساحة الزنزانة لقدمين — طولا وعرضا — سيظل عالقا بهما حتى بعد اطلاق سراحه ، قد اقنعنا زفايج أن أقسى تعذيب للانسان هو الحبس الانفرادى ، كل وسائل محاكم التفتيش بالنسبة اليه رحمة .

جمع زفايج فى أقصوصته بين لاعب الشطرنج ونزيل الزنزانة ببنيان هيكلها بالتقاء المنفصلين ومشاركة المنفردين كأنهما ابرنا تريكو تصنعان معا وكل منهما مستقلة نسيجا يتوالى نموه غرزة غرزة حتى يكتمل ، يصعب أن تفرق فى عمل الابرتين بين التوازى والتداخل

وبينهما « ولس » لا ينقطع ، وهذا مثل فذ لبراعة زفايج فى صناعة القصة وحبكها وتفصيلها وتركيبها وسوقها ونموها المطرد الى غايتها المقصودة على أتم وجه بحيث تستحيل الاضافة أو الحذف .

وأود أن أخبرك هنا للدلالة على قيمة هذه الأقصوصة وارتفاعها الى مرتبة النماذج أو الكلاسيكيات فى الفن القصصى أن صحيفة (الموند) الفرنسية — جليلة القدر — خرجت عن تقاليدها الراسخة فى اباء نشر قصة مسلسلة على صفحاتها اليومية وقدمت لقرائها « لاعب الشطرنج » مسلسلة فى أواخر صيف سنة ١٩٧٢ ، حقا انها ركبت موجة الاهتمام بمباراة الشطرنج الدولية بين بوبى فشر الأمريكى وموريس سناسكى الروسى فى مدينة لايكافيك ، ولكن لولا قيمة هـذه الأقصوصة ورغبة الموند أن ترفع بفضلها اهتمام قرائها بهذه المباراة من مستوى نوادى هواة الشطرنج الى مستوى حضارى وثقافى رفيع ، لمـا ظهرت على صفحاتها مسلسلة ..

لا أود أن أطيل عليك بسرد سيرة زفايج واحصاء أعماله العديدة ، ما أسهل أن تجد هذا كله فى أحد المراجع لكن لابد لى هنا ان أقول لك أن زفايج يهودى ، لم يخف عنا ديانته على خلاف أندريه موروا الذى لم نعرف أنه أندريه هبرزوج الا بعد أن كتب سيرته الذاتية . وزفايج رغم ديانته — ربما بسبب ديانته — يزهو بأنه منتم الى حضارة غرب أوربا المسيحية ، مؤمن بكل تقاليدها فلما رأى هذه التقاليد تتهاوى تحت ضربات هتلر وموسولينى حكم بأن هذه الحضارة قد أفلست وأن حياته هو قـد أفلست أيضا ، كل شىء اذن زائف ، فلم يبق له الا أن يقتل نفسه فكان انتحاره آخر مأساة يؤلفها .

وحين ننتقل الان من استيفان زفايج الى توماس مان، من لاعب الشطرنج الى طونيو كروجر فاننا رغم وحدة الشكل ننتقل من الضد الى الضد ، من الاتقاد والجيشان الى الأناة والتأمل ، من نعمة الأنس بالبشر سواسبة الى لعنة الاعتزاز بالتفرد والشذوذ . من لهفة الجائع الى تأنق الشبع ولكن أليس من الأفضل أن نؤجل هذا الكلام لنجعله مقدمة للاقصوصة الثانية نجدها بعد أن نفرغ من لاعب الشطرنج .

لاعب الشطرنج



ساد الهرج والمرج كالعادة قبيل الابحار على ظهر السفينة الكبيرة التى تزمع الاقلاع فى منتصف الليل من نيويورك الى بيونس ايرس . وتوالت وفود الركاب يصعدون الى السفينة يحيط بهم حشد من الأصدقاء ، وأخذ سعاة مكتب البرقيات وقد مالت الكاسكيت على اذانهم .. يصيحون باسماء عبر الصالونات ، واختلطت شيالة الحقائب بحملة باقات الزهور ، وشرعت جموع من الصبية بدافع من حب الاستطلاع تستكشف السفينة طلوعا ونزولا ، كل هذا والفرقة الموسيقية تعزف ألحانها كأنما لاتبالى بشىء .

التجأت للنجاة قليلا من الضجة والزحام الى المشى العلوى المعد لنزهة الركاب ، وشغلنى حديث مع صديق لى ، فاذا بوميض نور بتألق بالقرب منا مرتين أو ثلاثا. لا ريب انها آلات فوتوغرافية مصوبة نحو راكب ذى مقام لتصويره على عجل قبل السفر ، فالتفت صديقى نحوها وابتسم وقال :

— سترافقكم فى السفينة شخصية فذة .

ولما رأى نظرتى لاتنم عن الفهم أضاف موضحا :

— معكم سيركو زينتوفيك البطل العالمى فى لعبة الشطرنج ، لقد عبر الولايات المتحدة من الشرق الى الغرب وفاز فى كل المباريات ، وهاهو ذا يسافر الآن الى الارجنتين للظفر بأمجاد أخرى .

---

(١) نشر نصها الأصلى بالالمانية أول مرة سنة ١٩٤٣ فى مدينة استكهولم عن دار برمان فيشر .

تذكرت حينئذ خبر هذا الشـــاب وعجائب سيرته المدهشة ، وزودنى صـــديقى ــ لأنه أكثر منى قراءة للصحف ــ بطائفة من النوادر التى تروى عنه فازددت به علما .

بلغ زينتوفيك منذ سنة تقريبا مرتبة أشهر أئمة لعبة الشطرنج مثـــل البكين ، وكابابلانكا ، وتارتا كوبر ، ولاسكار ، وبيجو لجوبوف ، لم تبق عند أحد منهم حيلة تخفى عليه ، ومنذ أن لمعت موهبته الخارقة المبكرة فى مباريات نيويورك سنة ١٩٢٢ لم ير الناس فتى مغمورا مثله ينجح فى تسليط أسطع الأضواء على هذه اللعبة وأبطالها ، ذلك أن مواهبـــه العقلية لم تكن قط تبشر بمستقبل باهر ، وسرت الشائعات بأن هذا البطل عاجز عن ان يكتب جملة واحدة جتى بلغته دون خطأ فى قواعد الاملاء ، وقال عنه منافس له فى سورة من الحنق : انه جمع الجهل كله .

ولد زينتوفيك لأب بائس فقير من سلالة الصقالبة ، كان يعمل نوتيا فى سفينة شراعية تلتزم نهر الدانوب فصدمتها ذات لية سفينة بخارية محملة بالقمح واغرقتها ، وكان الصبى حين ذاق اليتم قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، فاحتضنه قسيس القرية وبذل عن طيبة قلب وبأمانة غاية الجهد فى أن يعيد على هذا الصبى الخامل الصموت دروسه التى تلقى عليه فى المدرسة ، ولكن هذه المحاولات باءت بالاخفاق ، يحنى ميركو جبهته الفسيحة على سطور سبق شرحها له أكثر من مائة مرة ، ويظل يحملق فيها بعين خالية من الفهم ، بل انه بعد أن بلغ الرابعة عشرة من عمره ظل لايعد الا على أصابعه ، لا يقرأ صحيفة أو كتابا الا بمشقة بالغة ، وما كان لأحـــد

أن يتهمه بأنه لا يبذل غاية جهده ، كل أمر يتلقاه يؤديه بروح طيبة ، كحمل الماء وقطع الخشب والعمل فى الحقل وتنظيف المطبخ ، وبعبارة موجزة ينجز بعناية كل عمل يكلف به ، وان اداه ببطء يثير الغيظ .

ولكن الطبع الذى أغم القسيس طيب القلب من تلميذه العجيب كان بالأخص عجزه المطلق عن الاهتمام بشيء ما ، فكان لايقوم بأى عمل من تلقاء نفسه ، لايوجه أبدا سؤالا ، لايلعب مع رفقائه ، فما بكا دينتهى من عمل يتولاه حتى يتخذ له مكانا فى حجرة النوم ، ينطق منظره بغياب الذهن وغموضه شأن منظر البهم السائمة ، لايلقى باله أبدا الى شيء يحدث أمامه . فاذا جاء الليل جلس قسيس القرية مع الضابط صديقه يلعب الشطرنج كعادته ثلاثة أدوار ، فكان الصبى حينئذ يقرب البها جمته الشقراء وتيستقر له على رقعة الشطرنج نظرة ساهمة كأنما أثقل الكرى أجفانه ، وحدث ذات ليلة والرجلان مستغرقان فى اللعب أن نم صليل أجراس يقترب بسرعة عن مقدم عربة زحافة على الثلج ، ثم مالبث أن دخل مندفعا فلاح قد غطى الثلج قبعته وناشد القسيس أن يصحبه ليؤدى طقوس الغفران الأخيرة لأمه العجوز لأنها تحتضر ، فلم يتأخر القسيس عن الخروج معه .

وبقى زميله الضابط وأمامه كوب من الجعة لم يتم شربه فأشعل غليونه وشرع يعالج وضع قدميه فى حذائه الثقيل ، تهيأ للخروج فاذا به يلحظ فجأة كيف أن نظرة ميركو بقيت ثابتة بأصرار على الرقعة التى بدأ عليها اللعب ثم توقف . فقال له مازحا :

ـــ هيا ، أتحب أن تتم الدور معى ؟

ذلك أنه كان واثقا من أن هذا الصبى الخامل لايحسن نقل قطعة واحدة ولو كانت بيدقا وفقا لاصول اللعب .
رفع الصبى رأسه بتهيب وأومأ اليه بالقبول ،واحتل مقعد القسيس فلم تمض أربع عشرة حركة حتى خسر الضابط الدور ، وأيقن ان هزيمته ليست عن اهمال منه ، فلعب دورا آخر فاذا به يخسره أيضا .
ولما عاد القسيس وعلم الخبر صاح قائلا :
— يالها من معجزة ، لقد نطق لعمرى حمار النبى بلعام .

ثم مضى يشرح لصديقه — وهو أقل منه علما بالعهد القديم — كيف حدثت معجزة منذ ألفى سنة حين نطق حمار النبى بلعام فجأة بكلام كله حكمة .

وبالرغم من أن الليل كان قد تقدم فان القسيس لم يستطيع كبح جماح رغبته فى أن ينازل تلميذه فغلبه ميركو بسهولة ، كان يدير اللعب ببطء وعناد وهدوء ، له خطة محكمة لاتنكر ، وفى الليالى التالية لم يفلح القسيس ولا الضابط فى الانتصار على هذا الصبى ولو مرة واحدة ، وشاق القسيس وهو يعلم مقدار غباء تلميذه فى كل مجال آخر أن يعرف مدى هذه الموهبة الفذة ، فقاد ميركو الى حلاق القرية فقص جمة له فى لون الهشيم حتى لا يقتحم منظره العيون ، ثم صحبه فى العربة الزحافة الى البندر المجاور ، اذ كان يعرف فيه رجلا مهموما بلعبة الشطرنج يجيدها خيرا منه ويعكف عليها الساعات الطوال فى ركن من قهوة الميدان الكبير .
ودخل القسيس القهوة وهو يدفع أمامه فتى لم يبلغ الخامسة عشرة ، مصفر الشعر أحمر الخدين ، على كتفيه فرو خروف مقلوب ، فحملق اليه جلاس

القهوة بدهشة وبقى الفتى مزروعا فى مكانه قد غض من بصره فى حياء ، حتى نودى عليه فأطاع وجلس يلعب فخسر أول دور ، لانه لم ير قط استاذه السابق ولا صديقه الضابط يلجأ فى بدء اللعب الى الخطة التى تسمى « الدفاع الصقلى » وفى الدور الثانى نازله أمهر لاعب فى القهوة فلم يخرج أحدهما غالبا أو مغلوبا ، ثم قهر بقية اللاعبين واحدا بعد آخر .

وهكذا اتيح لبندر صغير فى يوغسلافيا أن يكون مسرحا لحادث مثير ، وأبيح لأعيانه أن يشهدوا الخطوات الأولى المذهلة لهذا البطل القروى ، وقر رأيهم بالاجماع على استبقاء هذا الفتى النابغة بينهم الى الغد حتى ينقلوا خبره الى بقية هواة اللعبة عندهم وعلى رأسهم الكونت سيمزك ، وهو رجل له هوس بلعبة الشطرنج أما القسيس — وقد بدأت نظرته الى تلميذه تنطق بالفخر به — فقد شق عليه أن يهمل واجبات كنيسته وأعلن انه لايمانع فى أن يبقى معهم تلميذه وحده لينازل بقية اللاعبين . فحجزت له حجرة فى فندق البندر ، ورأى تلك الليلة لأول مرة مرحاضا له سيفون .

وفى مساء الاحد وفى صالة مكتظة بالناس مكث هذا الفتى أربع ساعات وهو جالس لا يتحرك أمام رقعة الشطرنج وقهر كل منازليه ، لا يلفظ بكلمة ولا يرفع نظره ، ثم اقترحوا عليه أن يلاعب جماعة فى وقت واحد وشق على أصحاب الاقتراح أن يفهموا هذا القروى المغلق الذهن معنى قولهم ، فلما فهم أخيرا أنهم يطلبون اليه أن يلاعب وحده وفى الوقت ذاته عددا متفرقا من اللاعبين انفذ لهم رغبتهم على الفور ، وأخذ ينتقل من لاعب الى الآخر ولحذائه الثقيل صوت مسموع .

حينئذ بدأت مشاورات طويلة ، ومع أن هذا البطل الجديد لايعد حقا من عشيرتهم الا أن حب استئثار بلدهم بكل صيت حسن تملك قلوبهم ، فمن يدرى ؟ لعل بندرهم الصغير الذى لايكاد يتبين موقعه فى الخرائط يذيع اسمه يوما لأنه موطن رجل شهير .

تقدم متعهد حفلات اسـمه كيلر ، شـغلته تقديم الراقصات والمغنيات الى الحانات ، وتطوع بأن يصحب الفتى الأعجوبة الى مدينة فينا ، وأن يقدمه هناك الى أستاذ مدهش — هكذا قوله — يتولى صقل موهبته ، وقال ان الأمر يتوقف على أن يتكفل واحد منهم بدفع نفقة اقامة الفتى فى تلك العاصمة لمدة سنة ، واذ كان الكونت سمزيك لم يلق طول حياته وهو يلعب الشطرنج منذ ستين سنة خصما يضارع هذا الفتى ، فانه تقدم على الفور وكتب حوالة بالمبلغ المطلوب ، وهكذا بدا هذا الفتى القروى ابن النوتى يشق طريقه الى قمة المجـد .

ولم يمض ستة أشهر حتى ألم ميركو بكل أسرار لعبة الشطرنج ، ولو أن ادراكه لها ظل فى الحق داخل حدود ضيقة ، وقد انكشف قصوره هذا وأصبح موضع تندر فى المحافل التى ارتادها من بعد ، اذ كان لابد له أن يرى الرقعة والقطع ماثلة أمامه ، وظل من ديدنه — حتى بعد أن ذاعت شهرته فى ارجاء الأرض — أن يحمل فى جيبه لعبة شطرنج فى حجم صغير حتى يهتدى به حين يريد حل معضلة أو اعادة تمثيل دور لعبة استاذ شهير

هذا العجز — وهو هين فى ذاته — دل على قصـور خيالة ، وجرى ذكره بالعجب على السنة المحيطين به كما تجرى السنة هواة الموسيقى بالعجب من احد مهرة

العازفين أو قائدى الاوركسترا حين يشل حركته غياب النوتة الموسيقية عن عينيه ، ولكن هذه الخلة لم تعق ميركو عن أن يتوالى تألقه المذهل : فى السابعة عشرة من عمره كان قد نال أكثر من عشر جوائز ، وفى الثامنة عشرة أصبح بطل المجر ، وفى سن العشرين انتزع البطولة العالمية لنفسه ، وكشف بقية اللاعبين وهم يفوقونه بمراحل شاسعة فى الذكاء والخيال والجراة عن عجزهم عن الصمود امام منطقه المحكم الصارم .

وكانت زمرة أئمة الشطرنج الى عهده لا تضم الا أمثلة متنوعة عديدة للذكاء الفائق — من فلاسفة وعلماء فى الرياضة وأفذاذ وهبهم الله سعة الخيال وخصوبته بل من هؤلاء الآخرين من جمع الى موهبته قدرته على الابتكار ، فاذا بهذه الزمرة يقتحمها شخص غريب على عالم الفكر ، يطالعها به فتى قروى جلف صموت ، لم يفلح الصحفيون قط فى أن ينتزعوا من فمه كلمة واحدة تنفع مقالاتهم عنه .

ولكن لابأس ، انهم يجدون اجزل العوض فى ذكر نوادره العديدة ، اذ أن هذا الفتى الذى لا ينكر أحد عليه موهبته اذا جلس الى الرقعة ، يصبح لحظة أن يفارقها شخصا يثير السخرية والهزء رغم وقار بذلته السوداء وفخفخة رباط رقبته ، تزينه لؤلؤة ثمينة ،ومع أن يديه تنمان عن فرط العناية بهما والالحاح فى تلميع اظافرهما ، فانه ظل يحتفظ فى حركته وتصرفاته بهيئة القروى الجلف الذى طالما كنس حجرة القسيس فى عهد من عهوده .

وكان زملاؤه يبتسمون تارة ويتفجعون للفضيحة تارة اخرى حين يرونه وهو ينفى التجمل والخجل ، لايشغل

فكره بشيء الا استغلال موهبته وشهرته ليعتصر منهما آخر قرش يستطيع أن يربحه ، لا ينكص من جشعه عن الانحطاط الى أحقر الدنايا ، فى أسفاره العديدة لا ينزل الا فى فنادق الدرجة الثالثة ، ولا يرفض ان يلعب فى النوادى المغمورة مادام يحصل منها على أجره ، ورأى الناس صورته على اعلان عن صابون ، ولم يأبه لسخرية العالمين بعجزه عن أن يخط جملة واحدة صحيحة وباع اسمه لناشر ليضعه على كتاب يصدره بعنوان (فلسفة الشطرنج) ، والحقيقة أن هذا الكتاب هو من تأليف طالب من غاليسيا بتكليف من هذا الناشر البارع فى تجارته كالأزرق الناب .

وفقد زينتوفيك — ككل رجل عنيد — كل احساس ببواعث السخرية ، وظن نفسه بعد أن انتزع البطولة العالمية قد أصبح أهم شخص فى الدنيا ، وحين ملأ جنبيه الزهو بانتصاره على أصحاب الذكاء الفائق وعلى المشهورين بقدرتهم على خلب الألباب بأحاديثهم الشيقة أو بتفوقهم فى مجال الأدب ، وحين رأى بالاخص انه يربح من المال أكثر منهم ، انقلب حياؤه الأصيل الى بجاحة باردة ، يعرضها بعجرفة سخيفة على الناس ولا يبالى .

واستطرد صديقى يروى لى نوادر اخرى عن سذاجة غرور زينوفيك وختم كلامه قائلا :

— ولكن كيف كان يمكن لمثل هذا النجاح العاجل الا أن يدير رأسا فارغا مثل رأسه ؟ كيف تريد من فتى فلاح من قرية مجهولة ، لا يزال فى سن الواحدة والعشرين ، أن لايدور رأسه وهو يرى انه يكفيه نقل قطعة من الشطرنج على الرقعة ليربح من المال فى أسبوع واحد

ما يفوق كل ما يربحه أفراد عشيرته فى سنة كاملة بعمل شاق فى الحقول والغابات ؟ أو ليس من الهين أن يحسب انسان نفسه رجلا عظيما اذا كان هذا الانسان يجهل أن الدنيا قد عرفت رمبرانت وبينهوفن ودانتى ؟ ان هذا الفتى الغضُ لا يشغل فكره الا بخاطر واحد ، هو أنه منذ شهور لم يخسر دورا واحدا ، لاعجب ان امتلأ غرورا بنفسه لأنه فى غفلة عن وجود قيم اخرى فى هذه الدنيا غير الشطرنج والمال .

لم يخب كلام صديقى فى اثارة عجبى واهتمامى ،فانى أهيم دائما بدراسة أصحاب الفكرة الثابتة ، فمن خلال عالمهم الضيق نصل الى عالم لا نهائى ، هم وان عاشوا فى وحدة ظاهرة يبنون بما فى أيديهم من مواد خاصة بهم — وكما يفعل النمل — نماذج مصغرة لعوالم مدهشة ، فأعلنت لصديقى عزمى على أن أراقب عن كثب هذا المثل الفريد لحصر الذهن ونموه داخل مجال واحد ، وقلت اننى لتحقيق غرضى سوف أستغل على أحسن وجه هذه الأيام الاثنى عشر التى تلزمنا للوصول الى مدينة ريو .

وحذرنى صديقى قائلا :

— ان فرص التوفيق أمامك ضئيلة ، لا أعلم أحدا قد نجح فى أن ينتزع من زينتوفيك كلمة تنبىء عن ضميره . فهذا الجلف يخفى وراء غياهب غبائه مكرا يتحرز به من كشف دخيلة نفسه والأمر سهل عليه ، فهو يتجنب الحديث الا مع أناس على شاكلته من القرويين الذين يصادفهم فى الفنادق الحقيرة حين ينزلها ، فان أحس أن محدثه رجل مثقف اختفى داخل قوقعته ، وهكذا لا يستطيع انسان أن يفخر بأنه سمعه ينطق بكلمة تنم عن غفلته وغبائه أو بانه استطاع أن يقيس مدى جهله .

وقد أثبتت تجربتى صحة قول صديقى ، ففى الأيام الاولى من الرحلة عجزت رغم كل جهد عن أن اتصل به ، الا اذا أقحمت عليه نفسى بقلة أدب ، وهذا ليس من طبعى ولا من عادتى .

كان يصعد الى سطح السفينة فى أوقات عديدة ، ولكن له هيئة تنبىء انه يخلو لنفسه وأفكاره فيصد الناس عنه ، يداه مشتبكتان وراء ظهره فى وضع عرف به نابليون بونابرت بشهادة صورة شهيرة له ، ثم ينصرف فجأة وعلى عجل بحيث لايبقى لمن يريد مخاطبته الا أن يجرى وراءه . لم يره أحد لا فى (البار) ولا فى حجرة التدخين ولا فى (الصالون) ، وأفضى الى أحد الخدم أنه قضى معظم وقته فى حجرته يتدرب على اللعب بشطرنج من حجم كبير .

كفتنى الأيام الثلاثة الاولى لأن أقتنع بأن صدوده أقوى من رغبتى فى انشاء صلة لى به ، وغاظنى اخفاقى، ولم يكن سبق لى أن أعرف عن قرب بطلا من أبطال الشطرنج ، وكلما حاولت أن أفكر كيف يكون هذا البطل زاد عجزى عن تصوره ، ماهى حقيقة ذهن محصور طول العمر فى رقعة منقسمة الى ٦٤ مربعا بين أبيض وأسود ؟ لاجرم أننى أعرف بالخبرة مدى السحر الخفى فى هذه اللعبة الملكية التى تنفرد دون سائر الالعاب بتحررها الأسمى من نزوات الحظ وسلطانه ، لا يعود فضل الانتصار فيها الا للذكاء وحده ، أو على الأصح لنوع معين من الذكاء . ولكن أليس فى اطلاق وصف « اللعبة » على الشطرنج بخس من قدرها ؟ أليس الشطرنج علما وفنا أو شيئا يتراوح بين الاثنين ؟ ان تاريخ مولد الشطرنج يرجع الى أزمان موغلة فى القدم، ومع ذلك فهو جديد أبدا ، حقا ان قطعه تنتقل بحركة ميكانيكية يترتب بعضها على بعض ، ولكن الفوز يتوقف على ذكاء اللاعب وحده، الشطرنج مقيد برقعة هندسية ثابتة ومع ذلك فلا حد لتعدد أشكاله وتآليفه ، انه دائم

الانكشاف ولكن بدون ثمرة وبلا هدف ، انه فكر لا يؤدى الى شيء ، وحساب لا يثبت شيئا ، وفن لا يبقى له أثر ، وعمارة بلا قوالب ، ومع ذلك فقد أثبت انه بطريقته الخاصة أبقى من الكتب وكل الآثار الفنية . هـذه اللعبة الفريدة تملكها كل الشعوب فى كل الأوقات ؛ لأحد يدرى أى وحى وهب الشطرنج للبشر ليقتل الملل ويؤجج وينعش الروح . أين بدايتـه وأين نهايته ؟ يستطيع الصبى الصغير ان يتعلم قواعده ، وفى مكنة الجاهل ان يلم بها ويصبح صاحب مقدرة لا مثيل لها اذا منحته الأقدار موهبة فهم الشطرنج ، واذا اجتمع الصـبر وحذق أصـول اللعبة يؤازرهما نظر كاشف للأستار ، تأتى الوصـول الى ابتكارات عديدة ، كما يحدث فى علم الرياضة وفن الموسيقى والشعر .

لو أتيح لرواد العلم الحديث فى القرون الماضية أن يعاصروا بطلا فى لعبة الشطرنج ، فلربما دفع شغف المعرفة بأستاذ من بينهم يعنى بعلم وظائف المخ — مثل الدكتور جال — الى أن يقوم بتشريح جمجمة هـذا البطل بعد موته ليعرف هل مخه ينفرد بخصائص تميزه عن سائر الناس ، بأن تكون مادته السنجابية مختلفة ، أو أن يكون له أعصاب أو نتوء لا نرى فى مخ أحد غيره ما أمتعه من انموذج للدراسة كان لا يمكن أن يقدمه له الا رجل يجمع فى آن واحد بين موهبة خاصة فائقة فى لعب الشطرنج وخمول عقلى بلغ تمامه ، موهبته تندس فى ذهنه كما يندس عرق الذهب فى بطن الصخور الصم .

حقا اننى أفهم — من حيث المبدأ — أن لعبة لها مثل هذا التفوق النابغ قادرة على أن تجتبى فرسانا يجولون ويصولون فى ميدانها شأن مصارعى الثيران فى حلبتهم

ولكن كيف يتأتى تصور ذكاء يمضى عمره كله محصورا فى رقعة صغيرة ، لايشغله الا تحريك اثنتين وثلاثين قطعة الى الأمام أو الى الخلف فوق مربعات ببض وسود؟ وكيف أن كل مجد لصاحب هذا الذهن يتوقف على نجاحه فى رسم هذه الحركات ؟ أى شىء هو هذا الرجل الذى يؤمن أنه أتى بعمل بطولى لمجرد انه افتتح اللعب بنقل الفرس بدل البيدق ؟

بفضل هذه الحركة يذكر اسمه فى كتب الشطرنج ويشغل مكانه الصغير بين الخالدين . بل أى شىء هو هذا الرجل الذكى الذى يستطيع — دون أن يصاب بالجنون — ان تمضى عليه من السنين عشر وعشرون وثلاثون واربعون وهو لا ينفك يكرس غاية طاقته الذهنية لبلوغ هدف سخيف وهو كيف يؤخر ملكا من خشب الى مربع فى ركن الرقعة ؟

واليوم أجد لأول مرة بالقرب منى ، فى السفينة التى تحملنى ، على بعد ست قمرات من قمرتى ، أنموذجا لهذه الموهبة الفذة ، لهذا النبوغ الفائق أو ان شئت لهذا الجنون الغامض . ومع ذلك لايتاتى لى أنا الاقتراب منه ، أنا الذى أهيم طول حياتى بعالم الذهن . شرعت أرسم لنفسى خططا سخيفة ، هل أزعم اننى مراسل صحيفة مشهورة واطلب منه حديثا ، أو أزعم اننى أعرض عليه جولة فى استكلندا يربح منها مالا وفيرا ؟ وأخيرا اتذكرت أن الصائديجتذب فريسته اذا قلد صرخنها فى موسم التلاقح وقلت لنفسى ان خير حيلة تصيد بها لاعب الشطرنج هو ان يراك تلعبه أنت ..

أعترف اننى لست من المبرزين فى الشطرنج فانى لاالعبه الا التماسا للتسلية ، واذا جلست الى الرقعة

فلطلب الاسترخاء وصرف البال عن المشاغل ، ثم ان الشطرنج ــ كالحب ــ يتطلب اجتمـــاع اثنين ، ولا أعرف هل بين الركاب من يلعبه غيرى وغير زوجى ، فمن أجل أن نتصيد لاعبى الشطرنج بيننا ــ ان كان هناك أحد منهم ــ اتخذت أنا وزوجى مكانا لنا فى حجرة التدخين أمام رقعة شطرنج ، وزعمنا أننا مستغرقان فى اللعب ، فلم نكد نمضى فى اللعب قليـــلا حتى وقف بجانبنا راكب تخلى عن نزهته وتبعه آخر وطلبا منا الاذن لهما بمشاهدة اللعب .

وأخيرا تقدم راكب آخر واستأذننى فى أن ألعب معه، وهو مهندس اسكتلندى اسمه ماك كونور ، قيل لى عنه انه جمـــع ثروة طائلة من شـــق آبار البترول فى كاليفورنيا ، هو رجل ربعة ، عريض الذقن ، سليم الأسنان ثراء تورد بشرته راجع الى غرامه بالويسكى، عريض الأكتاف مما يدل على أنه صاحب عزم حتى فى لعبه ، فهو من جنس هؤلاء الرجال الذين لا تخطىء العين ان حياتهم ناجحة ، ويبلغ بهم الوثوق بالنفس الى حد أنهم يعدون هزيمتهم ولو فى لعبة مذلة لأشخاصهم، فان هذا العصامى اللحيم الذى ألف الاستبداد برأيه وأن يأمر يخشونه فيطاع ، والذى رده النجاح الصادق غير المزيف الى طفل مدلل ، قد بلغ من غروره بتفوقه أن يعتبر كل معارضة له نوعا من الفوضى بل يكاد يعتبرها اهانة له .

خسر ماك كونور أول دور فتملكه الضجر والغيظ ، وأخذ يشرح بتدفق وبلهجة الواثق المطاع كيف انه لم يخسر الا لأن ذهنه قد سرح لحظة أثناء اللعب ، وخسر بعد ذلك دورا ثانيا ، وعلل هزيمته فى الدور الثالث بأن

ضجة فى الحجرة المجاورة قد اقلقت ذهنه ، وكان اذا خسر الدور أصر على أن يلعب دورا جديدا ، وقد لذ لى أول الأمر أن أراقب استماتته فى سبيل الفوز ، ثم قلت لنفسى ان اللعب معه عارض ثانوى فى خطتى ليس من شأنه أن يفسدها .

وفى اليوم الثالث نجحت خطتى ولكنها نجحت نصف نجاح ، فالظاهر أن زينتوفيك لحظنا من خلال النافذة وهو يتنزه فى المشى ، فهل يتنـــازل يا ترى ويشرفنا بانضمامه الينا ؟

والذى حدث اننا رأيناه يخطو الى حجرة التدخين خطوات تبدو غير متعمدة ، فلما دخل ألقى من بعيد نظرة الخبير الى الرقعة التى هى ميدان فنه ، وكان ماك كونور آنئذ ينقل بيدقا يا لسوء الحظ ! لقد كفت هذه الحركة وحدها أن تقنع الاستاذ الكبير بأننا غير جديرين باهتمامه والنزول الينا من عليائه .

ابتعد زينتوفيك عنا وغادر حجره التدخين ، لفظنا بحركة من يدخل مكتبة للبحث عن كتاب قيم فتقع يده على قصة بوليسية رخيصه فيطوح بها على الفور دون أن يعنى بتقليب أوراقها ، فقلت لنفسى : وضعنا فى الميزان فهان عنده قدرنا ، وشعرت بامتعاض من نظرته الدالة على احتقارنا ولم أستطع أن أكتم ضيقى فقلت لماك كونور :

ــ الظاهر ان حركتك لم تعجب الاستاذ .

ــ أى استاذ تعنى ؟

فاوضحت له ان هذ الرجل الذى وقف الى جانبنا وألقى الى الرقعة نظرة تنم عن عدم الرضى انما هو زينتوفيك البطل العالمى للعبة الشطرنج ...

ثم أضفت :
ــ لا حيلة لنا الا ان نقبل احتقاره ونحتمل اهانته بنفس قانعة ، كما يقنع الفقير بطبخ أكله بالماء ان فاته الدهن .

ولكن قولى هذا وما جعلته ينم الا عن تجردى وحيادى كان له وقع مذهل عجيب . ، فقد اضطرب ماك كنور وهاج ، وتخلى عن الدور الذى بدأه ، وانتفخت أوداجه من شدة تململه لجرح كرامته ، وقال انه لم يكن يعلم أن زينتوفيك مسافر معنا ، وأنه اذن لابد أن ينازله ، لأنه لم يلعب من قبل مع بطل من أبطال الشطرنج الا مرة واحدة ، حين نازل فى لعبة جماعيـــة أحد هؤلاء الأبطال ، وكاد يكسب الدور ، وسألنى هل زينتوفيك من خلطائى ؟ فلما نفيت له ذلك اقترح على أن أذهب وأقابله لأرجوه الانضمام الينا ، فرفضت متعللا بأن زينتوفيك لا يحب فى مبلغ علمى أن يوسع دائرة خلطائه، ثم قلت وأى متعة لبطل مثله أن يلعب مع هـــواة من الدرجة الثالثة مثلنا ؟

اعترف اننى أخطأت ، كان الحرص يقتضينى أن لا أرمى بعبارة اللاعبين من الدرجة الثالثـــة امام رجل مغرور مثل ماك كونور .

مال صاحبنا بظهره الى الوراء وقال بلهجة خشنة : انه يعتقد أن زينتوفيك لا يسعه الا القبول اذا دعاه سيد مهذب ، وأنه هو نفسه سيتكفل بدعوته وطلب منى أن أحيطه علما به فأمددته بوصف موجز لزينتوفيك ، فلم أكد أفرغ حتى انطلق يبحث عنه على ظهر السفينة
ورأيت مرة اخرى كيف يكون من العبث أن تحاول أثناء رجل له مثل هذه الاكتاف العريضـــة عن تنفيذ

فكرته ، ومكثت أنتظر النتيجة فى شىء من القلق والنوجس وعاد بعد عشر دقائق ووجهه ينطق بالغيظ وقال :

ـــ أصبت ، ان هذا الرجل جلف ، قدمت له نفسى وعرفته بمقامى فلم يتنازل حتى أن يمد لى يده ، فبذلت غاية جهدى لاقناعه بأن جميع المسافرين يسرهم غاية السرور أن يلعب معنا نحن لعبة جماعية ، ومع ذلك لم يلن جانبه وقال انه يأسف اذا رفض الدعوة لأنه مرتبط بعقد يلزمه بأن لا يلعب خلال جولته الا بأجر ، لذلك فهو مضطر لان يطلب منا أن ندفع له ٢٥٠ دولارا على الأقل عن كل دور ..

فاندفعت ضاحكا وقلت : ماكنت أحسب قط أن نقل قطعة من الخشب من مربع أبيض الى مربع أسود يدر مثل هذا القدر الكبير من المال ، آمل أن تكون قد ودعته وأنت تفارقه وداعا جميلا لا لقاء بعده .

ظل ماك كنور محتفظا بسمة الجد وقال :

ـــ سيجرى اللعب فى الساعة الثالثة عصر الغد فى حجرة التدخين هنا ، وأرجو أن نصـــمد فلا تلحقنا هزيمة ساحقة ..

فصرخت فيه والأسف يملؤنى : ماذا ؟ هل قبلت شروطه ؟

ـــ ولم لا .. انها مهنته ومورد رزقه ، فلو وجعنى ضرسى وكان معنا على السفينة طبيب أسنان لما طالبته أن يخلعه لى مجانا ! ان زينتوفيك على حق ، ككل رجل حاذق يحسن تدبير أموره وأما عن نفسى فانى أؤمن فى الصفقات بالمثل القائل « الشرط نور » فانى افضل أن أدفع الأجر حتى لايكون اعتمادى وحده على ظرفه ولطفه اذا اكتفيت بشكره بعد نهاية اللعب . ثم انه يحدث لى

ان أخسر فى ليلة واحدة فى النادى أكثر من ٢٥٠ دولارا دون أن أحظى باللعب مع بطل عالمى ، ولا ضير على لاعب فى الدرجة الثالثة أن ــ ينهزم امام زيننوفيك .

أمدنى قوله هذا بدليل على اننى حين وصفنه ببراءة وحسن نية بأنه لاعب فىالدرجة الثالنة قد اصبت كبرياءه بجرح بليغ لا يزال له نغر يلح عليه ، ولم يسعنى الا أن اوافقه مادام قد اعتزم ان يدفع من أجل متعته هــذا المبلغ الكبير ، انه سيتيح لى الفرصة لأن أشهد عن كثب هذه الشخصية التى أنارت اهتمامى ، وسارعنا بابلاغ الخبر الى أربعة أو خمسة من المسافرين نعرف انهم من هواة الشطرنج . وتأمينا لراحتنا غدا حجزنا جميع المقاعد القريبة من مجلسنا .

لم تأذن الساعة المتفق عليها حتى النأم شمل زمرتنا الصغيرة ، وتخلينا بطبيعة الحال الى ماك كنور عن المقعد المواجه لمقعد الاسناذ ، وأخذ صاحبنا الاسكتلندى — وقد استبد به القلق — يدخن سيجارة اثر أخرى ، ولا ينفك ينظر الى الساعة المعلقة على الجدار ، ولطعنا زينتوفيك عشر دقائق بعدا موعده دلالة على مقام بطل شهير ، فلم يدهشنى ذلك منه بعد أن عرفت مسلكه مع ماك كنور ، وأخيرا هل علينا بوجه يبلغ نطقه بالوثوق بالنفس حد البجاحة ، وخطا الى المنضدة خطوات متئدة مرسومة ، ولم يقدم نفسه الينا ، كأنه يقول لنا «أنتم نعلمون من أنا ولا يهمنى فى شىء أن أعلم من أنتم » وبدأ صف قطع اللُعب بخشونة المحترفين ، وتعذر أن تدار بيننا وبينه لعبة جماعية ، اذ لم يكن بالسفينة عدد من رقع الشطرنج يكافىء عدد أفراد زمرتنا كلهم ، فاقترح زينتوفيك علينا أن ينضم بعضنا الى بعض من جهة واحدة نلعب ضده ، وعرض علينا أيضا أنه بعد كل حركة منه سيبتعد عن المنضدة الى نهاية الحجرة ليخلو لنا الجو لتبادل الرأى بيننا ، وأن نقرع كوبا من الزجاج بملعقة — فليس عندنا جرس — كلما فرغنا نحن من حركة ، وأن لايزيد الوقت بين حركة واخرى — اذا وافقنا — عن عشر دقائق ، فقبلنا بطبيعة الحال عروضه كلها ونحن أشبه بتلاميذ غلبهم التهيب والحياء . وخرج اللون الاسود فى القرعة من نصيب زينتوفيك فكان رده على أول حركة منا نفتتح بها نحن اللعب أن نقل على الفور قطعة من القطع وهو

واقف لايبالى أن يجلس ، ثم مضى لنوه الى نهاية الحجرة يحتل المقعد الذى اختاره للبقاء فيه الى أن ننتهى نحن من التشاور ، وشرع يتصفح باهمال مجلة مصوره .

لاجدوى فى ان أروى هذا الدور بالتفصيل ، حاقت بنا هزيمة ساحقة بعد ٢٤ حركة ، وأى عجب فى أن ينتصر بطل عالمى على عدد من أوساط اللاعبين .

ولكن الذى أغمنا أكثر من الهزيمة هو اعتداده بنفسه وتعمده أن يشعرنا بتفوقه ، لايلقى الى الرقعة الا نظرة عارضة ، ولا الينا الا نظرة عابرة باهمال ، كأننا أيضا قطع من الخشب ، أو كلاب جرب يلقى اليها المار بعظمة من وراء ظهره ، وقلت لنفسى : لو حباه الله شيئا من الرقة لتنازل ونبهنا الى الأخطاء التى نرتكبها أو شجعنا بكلمة طيبة ، ولكن كلا . ماكاد الدور ينتهى حتى نطقت هذه الآلة الصماء قائلة « كش الملك — مات الملك » ثم ظل واقفا صامتا لايتحرك ينتظر أن يعرف هل نرغب أولا نرغب فى أن نلعب دورا ثانيا ؟ صفاقة هيهات أن تقـــاوم

وكنت قد قمت من مقعدى معلنا بذلك أن هذه هى نهاية لهونا ، واذا بى لشدة دهشتى أسمع ماك كنور يقول بصوت مبحوح

— نلعب دورا ثانيا !

قالها بلهجة تحد أخافتنى ، وبدا لى ماك كنور فى تلك اللحظة لافى صورة السيد المهذب بل فى صـــورة الملاكم الذى يستعد لتوجيه ضربتـــه . أبرجع سبب لهجته الى معاملة زينتوفيك لنا بغلظة ؟ أم الى مافى طبع ماك كنور من غرور مريض ؟ على كل حال تجلت لنا منه صورة غير صورته المألوفة . اشتد احمرار وجهه

حتى بلغ منبت شعره . اتسع منخرا أنفه ، ويتنفس بصوت ويعض على شــفته . وارتسم أخدود عميق بين فمــه وذقنه العريض ، وعرفت بجزع فى عينيــه بريق النلهف الجنونى الذى لابصيب عادة الا المقامرين لاعبى الرولين الذين يضاعفون رهانهم لسادس وسابع مرة على لون لايخرج لهم . ان غروره الأحمق سيستنزف كل ماله وسيظل يلعب مع زينتوفيك مرة بعد اخرى على أمل أن يفوز بدور واحد على الاقل ، واذا وجد منه مطاوعة كان له بمثابة المنجم الذى يستنزف منه بضعة آلاف من الدولارات قبل أن نبلغ بيونس ابريس ، أما زينتوفيك فقد ظل جامدا لاينطق وجه بشىء .. ثم قــال :

ــ الأمر لكم . اللون الأسود هذه المرة من نصيبكم.

ومضى الدور الثانى كالدور الأول وان زادت حلقتنا قليلا بانضــمام بعض من ســاقهم الينا حب التطلع وتسمرت نظرة ماك كونور على الرقعة كأنه يريد أن يسحر قطع اللعب بتيار مغناطيسى يقودها الى النصر، وشعرت أنه على استعداد لان يدفع ألف دولار لو أسعده الحظ بأن يصرخ « كش الملك .. مات الملك » فى وجه غريمه الذى لايعرف المجاملة . وانتقل الينا بالعدوى شىء من حماسته واصراره ، فأخذنا نناقش كل حركة وقد ازداد هياج نفوسنا ، ولا نتفق على رأى الا قبيل انتهاء مهلته من قبل أن ننادى زينتوفيك ليعود الينا . كنا قد وصلنا آنئذ الى الحركة السابعة عشرة فاذا بنا لشدة دهشتنا نرى اللعب يتحول الى مصلحتنا اذ نجحنا فى أن ندفع ببيدق الى الصف السابق للصف الأخير ، ولم يبق الا ان نقــدمه خطــوة واحدة حتى

يستبدل بهذه القطعة وزير ، ولم نكن فى الحق على ثقة بان الحظ قد ابتسم لنا ، وخامرنا جميعا شك فى مكر زينتوفيك . انه ولا ريب ينظر أبعد منا ، أنه يقدم لنا هـذا الطعم لغـرض ينكنمه واجهـدنا انفسـنا فى البحث والنقاش حتى نكتشف هذا الغرض فلم نوفق.

وأخيرا اقتربت المهلة من نهايتها وكان رأينا قد استقر على اغتنام الفرصـة وتقديم البيدق وكاد ماك كنور يدفعه الى الصف الأخير « فاذا برجل يمسك ذراعه ويهمس فى اذنه « اياك أن تفعل بالله عليك » ، التفتنا اليه جميعا على غير ارادة منا رأينا رجلا قارب الخامسة والاربعين ، له وجه مكنز بادى العظـام وكنت قد صادفته من قبـل على ظهر السفينة وراعنى منـه شحوبه الشديد ، لاشك انه كان قد اقترب منا ، ونحن مستغرقون فى تدبر حل للمعضلة التى تواجهنا ، فلما احس بنظراتنا ثبت عليه أضاف :

اذا قدمتم البيدق الآن واستبدلتم به قطعة الوزير، فانه سيهاجمكم بالفيل ، فتردون الهجوم بتحريك الفرس، ولكنه يكون قد هدد قلعتكم ببيدقه ، وحتى لو ضحيتم بالفرس فان الهزيمة ستحيق بكم بعد الحركة التاسعة أو العاشرة ، ان الوضع الذى أنتم فيه يشبه الى حد كبير وضع الدور الذى لعبه اليكين مع بوجولشوبوف فى المباراة الكبرى سنة ١٩٢٢ بمدينة ببستيان .

عدل ماك كنور ـــ وقد علته الدهشة ـــ عن تقديم البيدق ، وكان لايزال محتفظا به فى يده ، واخذ يتأمل فى عجب ـــ شأننا جميعا ـــ هذا الرجل الذى كأنما هبط علينا من السماء كالملك الحرس . ان رجلا يستطيع من سابق أن يحزر مجرى اللعب بمقدار تسع حركات لابد

أن يكون من أئمة المحترفين بل لعله من قرناء زنتوفيك، وسافر أيضا للاشتراك فى المباريات ذاتها ، وعددناها من قبيل المعجزات أن يقدم الينا هذا الرجل ويرشدنا فى عز الوقت الذى بلغ بنا الحرج ذروته ، وكان ماك كنور هو أول من استفاق من الدهشة وهمس له وقد هاجت نفسه :

— بماذا تنصحنى .

— لا تقدم البيدق الآن ، وتجنب خصمك ، وعليك أول كل شىء أن تزحزح الملك عن موضعه ، ففيه يكمن الخطر . ان خصمك سيهاجم من الجناح الآخر ، وحينئذ تصدونه بالقلعة ويخسر بذلك بيدقا كما يخسر تفوقه عليكم ، واذا أحسنتم الدفاع خرجتم لاغالبين ولا مغلوبين هذا غاية ما تبلغونه من هذا الدور .

انتقلنا من دهشة الى دهشة أكبر ، وبهرنا منه هذا التجديد للحركات وهذه السرعة فى حسابها ، وخيل الينا أن هذا الرجل يقرأ الحركات من كتاب وأنه لايعزى الا لمعجزة خارقة خروجنا من اللعب مع بطل عالمى لاغالبين ولا مغلوبين ، وتزحزحنا جميعا بحركة واحدة تلقائية لنفسح له موضعا يتيح له رؤية أفضل للرقعة وكرر ماك كنور سؤاله :

— هل أنقل الملك ؟

— بلا ريب .. بذلك تتجنب خصمك .

أطاعه ماك كنور وقرعنا الكوب فاقترب منا زنتوفيك خطواته الهادئة المطمئنة ، وكفته نظرة واحدة لأن يتدبر رده على حركته ، ثم قدم بيدقا فى الجناح الآخر كما توقع منقذنا المجهول ، الذى همس من دونه وقد احتشد صوته :

ـــ القلعة ، قدموا القلعة ليضطر الى حماية بيدقه ولن ينفعه هذا فى شىء ، ستهاجمونه حينئذ بالفرس ، وبذلك نعود المساواة بينكما كما كانت ، ثم يبدأ هجومكم ولن تكونوا فى حاجة الى التزام الدفاع .

لم نفهم شيئا من قوله كأنما كان يتكلم باللغة الصينية، واستخذى له ماك كنور وأنفذ نصيحته دون أن يجهد فكره ، وقرعنا الكوب من جديد ، ولأول مرة لم يسارع زينتوفيك الى اللعب من فوره ، بل ظل يتأمل الرقعة طويلا ثم حرك القطعة التى تنبأ بها صاحبنا المجهول وتهيأ للابتعاد عنا .

حينئذ وقع حادث جديد غير منتظر .. رفع زينتوفيك بصره وجال به بيننا ، انه يحاول وريب ان يدرك من منا قد صمد له فجأة ، واصبح هياج نفوسنا منذ تلك اللحظة لايعرف له حدا ، كنا نلعب بلا أمل ، فاذا بدمنا تلهبه فكرة تحطيم زينتوفيك وكبريائه الباردة ، وكان صاحبنا المجهـــول قد فرغ من تدبر الحركة التاليـــة فارتعشت أصابعى وأنا أتناول الملعقة لأقرع بهـــا الكوب لاستدعاء زينتوفيك .

ذقنا حينئذ لذة أول انتصار لنا ، فان البطل الذى لم يشأ من قبل أن يلعب الا واقفا تردد هذه المرة ثم تردد ، ثم انتهى تردده بأن جلس وهو كـــاره ، تاركا جسمه يهوى الى المقعد مالنا وله ، انه كف عن ان يعلن بالواقع المحسوس استعلاءه علينا ، قد اجبرناه على النزول الينا لنبقى جميعا فى مستوى واحد فى فضـــاء الكون على الأقل ، أطال زينتوفيك الاستغراق فى التفكير ورأسه محنية على الرقعة الى حد اننا عجزنا عن رؤية مقلتيه من تحت جفنيه الثقيلتين ، وأجبرته شدة الجهد

الذى ببذله أن يبقى فمه مفتوحا ، واكتسى وجهه المستدير بشىء من بلاهة الأطفال ، وبعد مضى بضع دقائق لعب لعبته ونهض فمتم صاحبنا .

ــ أجاد اللعب وتجنب الخطــر ، ولكن اياكم ان يخدعكم ، العبوا بحيث لايبقى له خيار فى لعبته القادمة اذا اردتم الخروج من الدور لاغالبين ولا مغلوبين ، لاشىء الآن يستطيع انقاذه .

أطاعه ماك كنور ، وانحصر اللعب بعد ذلك بين الخصمين ، ونحن كأننا زمرة من الكومبارس لانفهم شيئا ، وبعد ست أو سبع نقلات بقى زبنتوفيك مستغرقا فى التفكير تم أعلن :

ــ الدور « باطلة » .

وأطبق السكون الشامل علينا لفترة من الزمن ، وبدأنا فجأة نسمع بوضوح خرير الأمواج وموسيقى الجاز الخافتة المنبعثة من مذياع فى الصالون المجاور ، وأصبح لوقع أقدام المتنزهين على سطح السفينة صوت بين يصل الينا ، بل انتبهت آذاننا لهذا الصرير الخفيف الذى يحدثه الريح وهو يمر من خصاص النوافذ .

كتمنا أنفاسنا لشدة الدهشة من انقضاض هــذه المباغته علينا ، وراعنا أن حدث أمامنا شىء يجل عن التصديق : كيف استطاع رجل مجهول أن يوقع ببطل عالمى نصف هزيمة ؟ مال ماك كنور فجأة الى الوراء وندت من فمه صرخة تدل على الغبطة والفرح ، وكنت أراقب زينتوفيك فخيل الى أن وجهه قد شحب قليلا أثناء الحركات الأخيرة فى الدور ، ولكنه عرف كيف يتمالك نفسه وظل على جموده وقلة مبالاته ، ثم رفع قطع الشطرنج بيده وقال بصــوت عاطل لاينم عن دخيله

ضميره .

ـــ هل تريدون أيها السادة ان نلعب دورا ثالثا .

القى سؤاله بلهجة من يتحدث عن مسألة لا تمس شخصه ، كأنه رجل اعمال يتكلم عن صـــفقة تأتى وتـــروح .

ولكنه حين نطق بسؤاله لم يوجهه الى ماك كنور ، بل قذف بنظرة نفاذة ناحية منقذنا المجهول ، وكما أن للفرس احساسا يدرك به لحظة أن يمتطيه انسان هل هو راكب خبير أم غير خبير فكذلك زينتوفيك ، لاشك أدرك باحساس له أثناء الحركات الأخيرة فى الدور أى رجل هو خصمه ، لاحظنا جميعا نظرته على غير ارادة منا والتفتنا ناحية الرجل المجهول ، لم يترك له ماك كنور وقتا يتدبر فيه أمره أو ينطق باجابته ، بل صرخ اليه وقد انتفخت أوداجه من زهو الانتظار :

ـــ نوافق على العين والراس ولكنك ستلعب انت وحدك معه ، أنت وحدك ضد زينتوفيك .

حينئذ وقع حادث غريب ، كان الرجل المجهول قد بقى يتأمل الرقعة الخالية باستغراق غير مفهوم ، فاذا بنا نراه حين أحس الانظار تثبت عليه وتناشده بالحاح ـــ ينهض قفزا من مكانه وقد اضطرب ايما اضطراب ، وتمتم بارتباك :

كلا . كلا . هذا محال . أيها السادة . اننى لاأستطيع أن أستجيب لـــكم ، لقد مضى على عشرون أو خمس وعشرون سنة دون أن يقع نظرى على رقعة شطرنج، لقد أقحمت نفسى عليكم بغير اذنكم ، وأدرك الآن فحسب أن هذا الاقحام كان حماقة منى ، أرجوكم الصفح عن طفيلى يعاهد نفسه ان يتوب توبة نصوحا ، صدقونى؟

ثم غادر الحجرة من قبل ان نستفيق من دهشتنا .
صرخ ماك كنور وهو يغلى ويضرب المنضدة بقبضة يده.
ـــ فى المسألة سر لابد ان نعرفه أهذا شأن رجل زعم انه لم يلعب الشطرنج منذ خمس وعشرن سنة ؟ هذا مستحيل . انه كان يتدبر بامعان كل حركة ويحرز خطة خصمه قبل سفورها بوقت طويل ، ليس فى قدرة انسان أن يلعب هكذا اعتباطا .. هذا شىء مستحيل كل الاستحالة .

والتفت ماك كنور عن عمد الى زينتوفيك وساله :
ـــ الست من هذا الرأى .
ولكن الرجل ظل جامدا ثم قال .
ـــ لااستطيع أن أحكم ، فى الحق ان هذا السيد له فن يلفت النظر لذلك تساهلت ورضيت أن أترك له فرصة يثبت فيها تفوقه .
ثم نهض وأضاف وهو غير مبال :

ـــ اذا أحب أحد منكم أيها السادة أن يلعب غدا فانى رهن مشيئته هنا ابتداء من الساعة الثالثة من عصر الغـــد .

لم نقو على كتم ابتسامة علت شفاهنا ، كنا نعلم جميعا أنه اذا كان قد خسر الدور فمكره اخاك لابطل ! وان كلامه عن تساهله حيلة ساذجة يخفى بها نكتته فازدادت رغبتنا فى اذلاله وارغام أنفـــه فى التراب ، وتبدل حالنا : لم نكن الى تلك الليلة الا ركاب سفينة ينعمون بالتنقل بين الدعة والكسل ، فاذا بنا نتحول فجأة الى أناس تملكهم الضراوة وشهوة القتال ، حين جال فى أذهانهم أن هذه السفينة التى تمخر عباب المحيط قد تشهد مصرع زيننوفيك .. انه خبر يذاع من فوره

بالراديو على العالم أجمع .. ومما زاد فى هياج نفوسنا هذا السر الغامض الذى أحاط بمنقذنا المجهول ، وهذا التناقض الواضح بين غلو نواضـــعه وبجاحة كبرباء اللاعب المحترف .

من هو هذا اللاعب المجهول ؟ هل أتاح لنا الحظ أن نكتشف للعالم لاعبا عبقريا جديدا ؟ أم تراه بطل ذائع الصيت أخفى عنا اسمه لسر محجب ؟ وأخذنا ندير بيننا هذه الأسئلة وقد بلغ بنا الهياج قمته ، وكان كل احتمال نفرضـــه — وان شططنا فى الخيـــال — لا يسعفنا فى التوفيق بين تهيب الرجل المجهـــول . واعترافه المذهل ، بالرغم من أن تفوقه البين فى لعب الشطرنج يكذبه . ولكننا كنا جميعا على اتفاق حول مسألة واحدة ، وهى رغبتنا بأى ثمن أن نحمل الرجل المجهول على قبول اللعب مع زينتوفيك ، وتكفل ماك كنور بأن يتحمل عنا بماله عبء المجازفة بالرهان ، وكنا قد علمنا حينئذ من احد الخدم ان اللاعب المجهول من أبناء النمسا ، فعهد الى لأننى من مواطنيه ان أتقدم اليه برجائنا .

لم يطل بحثى عنه ، وجدته ناجيا بنفسه فوق ظهر السفينة . مسترخيا على اريكه وهو يقرأ ، واخذت اتأمله مليا قبل أن أتقدم اليه أسند الى الوسادة رأسه البارزة عظامه ، كأنما يحس بشىء من النعب ، وراعنى من جديد شحوب وجهه بالرغم من انه لم يتجاوز كثيرا مرحلة الشباب ، وحين رأيت أبيضاض شعره لا ادرى لماذا خيل الى انه شاب قبل الاوان . فلما اقتربت منه نهض بأدب وحفاوة وقدم الى نفسه ، ذكر لى لقبـــا هو من القاب الأسر النمساوية العريقة ، يشاركه فيه صديق كان لشوبرت الموسيقار العظيم ، وبعض

أطباء الامبراطور .

أخبرته برجائنا فبدت عليه دلائل الحرج ، واكتشفت أنه لم يكن يحسب قط أنه نازل بطلا من أبطال لعبة الشطرنج ، فكيف يحسب أنه نازل أشهر الأبطال ، وراعه الخبر لما بلغه منى ، وأخذ يسألنى مرارا هل أنا واثق مما أقول ؟ وهل غريمه هو حقا بطل له مثل هذا الصيت الذائع ، وقد هون مسلكه على سفارتى ، ولكنى لما أحسست بفرط رقته رأيت من الأليق أن لا أذكر له شيئا عن تحمل ماك كنور غرامة المجازفة باللعب ضد زينتوفيك .

تردد السيد « ب » برهة طويلة ثم قال انه يقبل التحدى ، وأضاف بابتسامة من ورائها فكرة :

ـــ قل للسادة أصحابك أن لا يعلقوا على فى غلو آمالا عريضة ، فالحق أننى أجهل هل انا قادر أو غير قادر على أن العب دور شطرنج طبقا لقواعده وأصوله ، صدقنى ، لم يكن قط من قبيل التواضع الكاذب تأكيدى لكم بأننى لم أمس رقعة شطرنج منذ أن كنت طالبا فى المدرسة الثانوية ، أى منذ أكثر من عشرين سنة ، بل لم أكن حينئذ الا لاعبا مبتدئا لا خطر له .

قال قوله هذا بشىء كثير من البساطة فما شككت فى صدقه ، ومع ذلك لم يسعنى الا ابداء دهشتى من مقدرته على تذكر خطط أئمة أبطال الشطرنج الذين جاء ذكرهم على لسانه ، وقلت انه كان ولا ريب مهموما بالشطرنج على الأقل من حيث دراسته النظرية .

فلما سمع كلامى عادت من جديد تعتلى فمه ابتسامته العجيبة الحالمة وقال :

ـــ نعم ، ما كان أشد همى بالشطرنج ! أنت صادق فى عجبك ، ولكن خبرتى بالشطرنج قد اكتسبتها فى

ظروف معينة ، بل فريدة فى نوعها ، انها حكاية معقدة ، كل نفعها أنها تقدم لك صوره عن ظروف مرت بنا ، ان صبرت نصف ساعة رويتها لك :

دعانى باشارة من يده الى الجلوس على الأريكة التى تجاور أريكته ، كنا وحدنا ، وخلع السيد ب نظارته وبدأ حديثه :

لقد تفضلت وذكرت لى أنك من أبناء مدينة فينا ، وأنك على علم بلقب أسرتى ولكنى لا أحسب أنك سمعت بخبر مكتب المحاماة الذى كنت أديره أولا مع أبى ثم وحدى من بعده ، ذلك لأننا كنا لا نترافع فى القضايا الشهيرة التى تروى الصحف أنباءها ، ولا كنا حريصين على زيادة عدد الموكلين ، وان شئت الحقيقة فاننا لم نكن نمارس مهنة المحاماة بمعناها فى عرف الناس ، لا نذهب للمحاكم ، بل اقتصر عملنا على الاستشارة القانونية ، وعلى ادارة أملاك الأديرة الكبيرة ، وكان أبى وثيق الصلة بها ، اذ سبق له أن دخل البرلمان نائبا عن حزب رجال الدين ، وأستطيع اليوم أن أفضى اليك — فقد زال النظام الملكى من النمسا — أن أغلب أفراد أسرة الامبراطور عهدوا الينا أيضا بادارة أموالهم ، وقد توارثت أسرتى علاقتها بالقصر ورجال الدين منذ جيلين سابقين لجيلى ، كان أحد أعمامى طبيبا للامبراطور ، وعم آخر قسيسا ، فلم يكن يطلب منى بذل جهد الا فى ادامة هذه الصلة الموطدة . واتصف عملى بالسكينة والهدوء والصمت . عمل ورثته عن آبائى ، لا يتطلب للمحافظة عليه الا اقصى درجات الكياسة وكتمان السر والأمانة الموثوق بها ، وكان أبى مضرب المثل فى التحلى بهذه الصفات ، ونجح فى أن يستنقذ لموكليه قدرا كبيرا من ثروتهم بالرغم من

التضخم المالى والثورة .

فلما تولى هتلر سلطة الحكم فى المانيا ، وبدأ ينهب الأديره والكنائس تولى مكتبنا عقد صفقات واتفاقات كثيرة من وراء الحدود ، وكان الغرض منها حماية موكلينا من مصادرة أموالهم .. أموالهم المنقولة على الأقل ، وكنت أنا وأبى فى ذلك الوقت نجهل دخائل سياسة روما وسياسة البيت الامبراطورى ، ولا أظن أن الجمهور سيعرف هذه الدخائل فى يوم من الأيام ، ولكن شهرتنا بالأمانة وكتمان السر ، وحرصنا على تجنب اعلان صلتنا بالأحزاب الملكية ، ثم تعمدنا ازالة لافتة المكتب عن بابه .. كل ذلك كان مدعاة لأن يجنبنا كل ريبة ، فلم تكن فى النمسا آنئذ جهة رسمية يخطر ببالها أن بريد الامبراطور السرى يتسرب عن طريق مكتبنا المتواضع ، الكائن فى الطابق الرابع فى أحدى عمارات فيينا . كأنه مكتب بريد سرى .

وكان النازى قبل أن يبدأ هجومهم على العالم قد أعدوا فى كل البلاد المجاورة لألمانيا أنصارا لا يقلون عن جيشها فى الخطر والتدريب . يصطفونهم من بين الممرورين والغاضبين ، وقلما يخلو منهم نظام من أنظمة الحكم أيا كان ، عملهم أن يندسوا فى كل مكتب وفى كل مؤسسة ، بل كان من بينهم جواسيس فى مكتب المستشار دولفوس ثم من بعده ، شوشنج وقد علمت فيما بعد —ويالاسف بعد فوات الأوان — أنه كان من بينهم جاسوس فى مكتبنا الصغير أيضا ، كان مستخدما صغيرا ألحقناه بالعمل بناء على توصية قسيس ، فعلنا ذلك من أجل أن يبقى الظن بأن مكتبنا لا يشتغل بشىء الا بالمحاماه ، ثم لم نعهد لهذا المستخدم الا بعمل السعاة كالخروج لانجاز بعض المطالب الهينة والرد

على التليفون وترتيب أوراق ليست بذات خطر ، لم يكن من شأنه أن يفتح البريد وكنت أتكفل أنا نفسى بالدق على الالة الكاتبة لتحرير الرسائل دون أن أترك منهـــا صورة فى المكتب ، وأحمل معى الى البيت كافة الوثائق الهامة ، ولا أقابل الموكلين الا فى الكنيسة أو ببت عمى .

لم يبق للجاسوس شيء يتصيده فى المكتب ، ولكن شاء القدر السيىء أن ينتبه هذا المستخدم أنه موضع ريبة وأن العمل يجرى من وراء ظهره ، لعل احد رجالنا قد زل لسانه فى غيبتى ، وتحدث عن الامبراطور ذاكرا اسمه دون أن يلغز فيسميه « البارون برن » كما هو اتفاقنا ، أو لعل الجاسوس فتح البريد غير آبه بأوامرنا على كل حال بدأت سلطات برلين وميونيخ تراقبنا عن كثب ، قبل أن تساورنى أقل ريبة فى انكشاف سرنا ، لم أتذكر الا بعد أن مضى زمن طويل ، وبعد أن قبض على ، كيف أن الجاسوس بدأ أيامه الأخيرة بمكتبنا يبدى مزيدا من الهمة والنشاط ، لا ينقطع الحاحه فى أن يتولى عنى وضع الرسائل فى صندوق البريد .

لا أنكر اننى انخدعت به ، ولكن كم من دبلوماسى وكم من ضابط راح ضحية انخداعه بهذا الصنف اللئيم .

وأخـــيرا أتيح لى أن اظفر بدليل مادى عـــلى أن الجستابو كان يلاحقنا بتتبعه لنا منذ زمن طويل ، ففى الليلة التى قدم فيها المستشار شرشنج استقالته ، ليطلع الصباح من بعدها على دخول هيتلر الى فينا ، جاء نفر من الحرس والقوا القبض على ، وكنت لحسن الحظ حين سمعت خطاب الوداع الذى أذاعه شرشنج ، قد أسرعت باحراق كل الأوراق الهامة ، وكنت قد نجحت فى أن أسبق بدقيقة واحدة طرق حرس النازى على الباب ، وجمعت كل الوثائق التى تثبت وجود أموال

خارج حدود النمسا ، بعضها بملكه الدير الذى ننمى اليه وبعضها يملكه اثنان من أسرة الامبراطور ، وخبأت هذه الوثائق فى سلة ملابس حملتها مربيتى العجوز الأمينة لتسلمها الى عمى .

قطع السيد « ب » حديثه ليشعل سيجارة ، فأنار لهيب الثقاب فمه ، فرأيت من جديد فعل عادة له كنت قد لحظته من قبل بدهشة ، وهو التواء طرف فمه كلما هاجت أعصابه ، انه التواء خاطف لا تكاد تراه العين ، ولكنه يضفى على وجهه كله مسحة من قلق عجيب .

ثم أردف يقول : —

تحسبنى الان ولا ريب سأروى قصة أخرى من قصص معسكرات الاعتقال ، وأن أطنب فى وصف ما لقيته من تعذيب واذلال ، كلا . لم يحدث لى شىء من هذا ، اذ انهم سلكونى فى زمرة أخرى ، زمرة من طمع الحزب النازى فى انتزاع أسرارهم لا فى الانتقام منهم ، فما كان لشخصى الضعيف قيمة فى نظرهم — هم يريدون أن ينتزعوا منى أسرارا تنفعهم فى محاربة خصومهم .

لم يزجوا بزمرتنا فى سجن أو معسكر اعتقال ، بل كانت موضع تكريم . فقد أنزلوا كل واحد من أفرادها فى حجرة خاصة فى فندق ، هو فندق مسروبول الذى اتخذه الجستابو مقرا رئيسيا لهم . ونلت أنا أيضا — وأنا شخص مغمور — هذا الشرف العظيم .

حجرة خاصة فى فندق ! هل يتأتى لى أن أحلم بمعاملة أفضل من هذا ؟ ولكنها كانت أشد مكرا وقسوة طريقتهم فى اسكاننا حجرات خاصة تنعم بالدفء ، بدلا من الزج بنا فى معسكرات مكتظة تعانى الصقيع ، انهم بذلك قد أسلمونا لوحدة مطبقة ، لم يفعلوا بنا شيئا ، بل اكتفوا بتركنا والعدم وجها لوجه ، ومن المعلوم أن لا شىء

يكرب النفس مثل الوحدة . فضرب نطاق من الفراغ حولنا ووضعنا فى حجرة لا صـــلة بينها وبين العالم الخارجى هو أقوى فعلا فى فتح أفواهنـــا من تعذيبنا بصقيع معسكرات الاعتقال .

لم أجد أول الأمر فى حجرتى شيئا يفسد راحتى ، كان لها باب وبها فراش وكرسى وحوض صغير ونافذة اشتبك عليها سياج من حديد ، ولكن الباب ظل مغلقا ليلا ونهارا ، كان محرما على أن أحصل على كتاب أو صحيفة أو ورق أو قلم ، وكانت النافذة تطل على جدار عال مواجه لها .

لم أجد حوالى الا فراغا أنا غارق فيه ، وكانوا قد أخذوا ساعتى حتى لا أعرف مرور الوقت ، وأخذوا قلمى حتى لا أكتب شيئا ، وأخـــذوا مبراتى حتى لا أستنزف بها دمى ، وكان محرما على أن أجد متعـــة هينة فى تدخين سيجارة ، لا أرى أبدا وجه انســـان الا وجه الحارس ، وكان مأمورا أن لا يوجه الى الحديث وأن لا يجيب اذا سألته ، كنت لا أسمع قط صـــوت انسان .

هذا الوضع الذى حرم الحواس غذاءها طول الليل والنهار خلفنى وحيدا يائسا ، منفردا أمام نفسى وأمام أربعة أو خمسة أشياء جامدة : المنضدة ، الفراش ، النافذة ، الحوض . كنت أعيش كالغاطسين فى البحر داخل وعاء وسط خضم من الصمت العميق ، ولكن الفرق بينى وبينهم أن الحبـــل الذى يربطنا بالعـــالم الخارجى كان قد انقطع عندى ، ولم يبق لى أمل فى الخروج من غياهب الصمت العميق ، لم يكن هنـــاك شىء أفعله أو أسمعه أو أنظره ، ليس من حولى الا فراغ ممدوح ، فراغ لا حدود له فى الزمان والمكان .

أخذت أذرع الحجرة جيئة وذهابا والأفكار تذرع رأسى جيئة وذهابا بلا هوادة ، وعلى نمط واحد لا يتغير .

ولكن الفكر حين يحرم من مدد خارجي يظل يطلب نقطة ارتكاز له والا دار حول ذاته دورانا جنونيا ، لأن الفكر لا يتحمل الفراغ هو أيضا ينتظر من الصباح للمساء أن يحدث شيء فلا يحدث شيء ينتظر من جديد ثم ينتظر وينتظر ، والأفكار تدور ، وتدور فى رأسه ، الى أن تلتهب أصداغه ، لا يحدث شيء ، ويبقى وحيدا وحيدا وحيدا .

دام حالى على هذا المنوال خمسة عشر يوما ، عشت خلالها خارج الزمن وخارج الدنيا ، لو اندلعت حرب لما عرفت بخبرها ، الوجود كله عندى لا يزيد عن منضدة وباب وفراش وكرسى وحوض ونافذة ، وأربعة جدران يثبت على ورقها نظرى ، كل خط فى نقشة قد حفر فى عقلى من طول خبرتى به وتأملى له .

وأخيرا بدأ التحقيق ، كنا عرضة للاستدعاء فجأة لا ندرى متى ؟ أبالليل أم بالنهار ؟ يقاد بنا عبر دهاليز لا نعرف أين تؤدى ، ثم ننتظر فى مكان ما ، ثم نجد أنفسنا فجأة أمام منضدة يجلس حولها نفر من الرجال فى زى رسمى ، وعلى المنضدة كوم من الاوراق — داخل ملفات لا نعرف محتوياتها ، ثم هذه الأسئلة الصريحة تتلوها أسئلة ماكرة تخفى وراءها أغراضا أخرى ، أسئلة تنصب لك الشرك ، واذ نحن نجيب على هذه الأسئلة تمتد يد غريبة تنم عن العداء لنا ، وتقلب الأوراق التى نجهل محتوياتها ، ويجرى قلم يضمر لنا الشر بخط أسطر فى محضر التحقيق فلا نعلم ماذا كتب .

ولكن أكثر شيء أزعجنى فى هذا التحقيق كان عجزى

عن تخمين مدى ما يعرفه الجستابو عن أعمالى بفضل جاسوسهم ، وأى شىء بقى يريدون معرفته منى ، وكنت كما قلت لك قد افلحت قبل القبض على بدقيقة واحدة فى أن أرسل الى عمتى مع مربيتى كل الوثائق ذات الخطر . كنت أسأل نفسى هل يا ترى حملتها اليها ؟ ما مدى علم المستخدم الجاسوس بأسرارى وفضحه لها ؟ هل وضعوا يدهم على رسائل لى ؟ هل ظفروا بشىء من فم قسيس مسكين جرى التحقيق معه بمهارة فى دير ندير أملاكه ؟

وانهالت على الأسئلة : ما هى الأسهم والسندات التى اشتريتها لهذا الدير ؟ مع أى بنك أتعامل ؟

هل أعرف فلانا أو فلانا ؟ هل تصلنى خطابات من سويسرا ؟ واذ كنت لا أعرف حق المعرفة مدى سابق علمهم بأسرارى فقد زلزلنى ادراكى أن كل اجابة منى قد تتعلق بها مسئولية جسيمة ، فلو نطقت بشىء لم يصل الى علمهم أكون بذلك باعثا بانسان الى القبر ، واذا غلوت فى أطباق فمى أضررت بنفسى .

لم يكن أسوأ مالقيته هو التحقيق معى ، بل العودة الى العدم ، الى الحجرة ذاتها ، والمنضدة ذاتها ، الى الفراش بعينه ، الى ورق الجدران بعينه .

وكنت لا أكاد أعود الى خلوتى بأفكارى حتى أستعيد فى ذهنى مجرى التحقيق ، أفكر فى أحسن اجابة فاتتنى وكان ينبغى أن أرد بها ، وكيف ينبغى أن أجيب فى المرة القادمة لأستبعد الشك الذى أثرته من قبل بعبارة ندت عن فمى بغير أناة أو تدبر .

كنت أغوص وأغوص الى الأعماق ، وأمتحن كل اجابة لى سابقة ، وأعيد فى ذهنى كل سؤال وكل رد ، وأحاول أن أقدر ماذا يمكن أن يكون قد سجله

محضر التحقيق ، وأنا عليم حق العلم ان هذا التقدير محـــال .

ما تكاد هذه الأفكار تنبعث فى رأسى حتى تظل تدور فيه وتدور ، تتشابك على نحو آخر دون توقف ، تلاحقنى هذه الأفكار حتى فى نومى .

وهكذا كان لا مفر ـــ بعد أن ينتهى التحقيق ـــ من أن يطيل فكرى عذابه بقسوة تفوق قسوة القضاة ، جلسة التحقيق عندهم نهايتها بعد ساعة من عقدها ، أما وحدتى فى الحجرة فلا تمن على عذابى بنهاية ، ليس من حولى الا المنضده والفراش وورق الجدران والنافذة، كل وسائل التسلية معدومة : لا كتاب ، لا صحيفة ، لا وجـــه الا وجهى لا قـــلم يسمح لى أن أســـجل به خاطرا جال فى ذهنى واريد ان لا انساه ، بل لأعود نقاب ألهو باشتعاله واطفائه ، لا شىء . . . لا شىء . . لا شىء . . .

ليس الا شيطان عبقرى قاتل للروح يهدى فى التعذيب الى وسيلة الخلوة داخل حجره فندق ، لو كنت فى معسكر اعتقال لعملت ولا ريب فى نقل الأحجار حتى تدمى يداى ، ويجمد البرد قدمى داخل الحذاء ، ولحشرت مع خمسة وعشرين رجلا فى قبضة الصـــقيع والعفونة ، ولكنى كنت مع ذلك سأرى وجوه بشر وأتأمل حقلا ، وعربة نقل يدويه صغيره ، كنت سأنظر الى شجرة ، الى نجم ، سأنظر ـــ أخيرا ـــ الى شىء جديد بدلا من هذه الحجرة التى لا يطرأ عليها طارىء ، فظيعة فى ثباتها المستقر وشبهها الواحد الذى لا يتغير ، ليس فيها شىء واحد يستطيع أن يجذب اليه نظرى وينقذنى من أفكارى وخيالى المجنون واجترارى المريض، هذا هو عين ما يقصده جلادى ، أن نطبق على الأفكار

حتى تخنقنى ، بحيث لا يبقى لى الا أن ألفظها لفظ البصاق — كما يقال — وأعترف ، أعترف لهم بكل شىء . افضح أصدقائى وأدلى للقضاة بما يريدون علمه .

أحسست بسبب هذا الارهاق المخيف أن قوة احتمال أعصابى قد تراخت ، وحشدت بجزم أقصى قواى للبحث عن مخرج .

أخذت — من قبيل خلق شغلة تلهينى — أتلو بصوت مرتفع ما كنت أحفظه من قبل عن ظهر قلب ، مرددا النص كما تسعفنى به ذاكرتى ولو خرج مضطربا ، أتلو قصائد غنائية شعبية ، وأناشيد أطفال ، وفقرات من هومير حفظتها فى المدرسة ، ونص مواد فى القانون المدنى . ثم أخذت أحاول فرض مسائل حسابية لأصل الى حلها ، وأختار خبط عشواء أرقاما ما ، وأظل أخلط بينها بالجمع والطرح والقسمة ، ولكن وجدت قدرتى على التفكير فى خلاء حجرتى مصابة بالشلل ، ولم أستطع أن أركز ذهنى فى شىء اذ يستولى عليه من جديد بفكرة واحدة تلاحقنى بالحاح هى : ماذا يعلمون ؟ ماذا قلت بالأمس ؟ ماذا ينبغى أن أقوله فى المرة القادمة .

عشت فى هذا الجو الذى لا يحيط به وصف مدى أربعة أشهر ، أربعة أشهر : كلمتان ما أقصر عمرها نطقا وكتابة ، لا يستغرق النطق بهما الا أقل من ربع ثانية . ولا تطلب كتابتها من الحروف الا النزر اليسير ، ولكن كيف يتأتى لانسان أن يعبر — حتى لنفسه وحده — بالنطق أو الكتابة عن حياة تمضى أربعة أشهر خارج معايير الزمان والمكان ؟ لن يفلح أحد أبدا فى التعبير عن هذا الخلاء المطبق كيف يبلى ويحطم ، ولا وقع منظر هذه المنضدة الأبدية وهذا الفراش ، هذا الحوض الأبدى وهذا الورق على الجدران ، ما وقع هذا الصمت

المطبق الذى قسرت عليه ؟ ما وقع مسلك الجندى الحارس وهو واحد لا بتغير ؟ كل ما يفعله أن يقدم الطعام للسجين دون أن يلقى عليه نظرة واحدة ، أفكار هى دائما واحدة لا تتغير ، تدور فى الفراغ حول رأس من انفرد بنفسه الى أن يصاب بالجنون .

دلتنى علامات هينة انزعجت لها أن عقلى قد بدأ يختل ، كنت فى مبدأ الأمر أحتفظ بوضوح ذهنى اذا مثلت أمام القضاة ، وأدلى بأقوالى بهدوء وتدبر . وأفرق بنجاح فى ذهنى بين ما ينبغى وما لا ينبغى قوله ، أما الان فأصبحت لا أقوى على النطق بعبارة ولو موجزة دون أن أتلعثم ، اذ أظل وأنا أنطقها أثبت نظرتى كالخاضع للتنويم المغناطيسى على قلم كاتب الجلسة وهو يجرى على الورق، كأنما أود أن أجرى فى أثره والأحق كلماتى .

أحسست أن قوى قد ضعفت واقتربت الساعة التى أدلى فيها — طلبا للنجاة — بكل ما أعلم ، بل بأزيد مما أعلم ، أفضى بأسرار أصدقائى وأفضحهم ، ولو لم يكن جزائى الا برهة عابرة من الراحة .

وذات مساء وأنا فى حجرتى دخل على الحارس ليقدم لى الطعام ، فاذا بى وهو يهم بالانصراف أصرخ اليه بصوت مختنق :

— خذنى الى القضاة ، سأعترف بكل شىء ، سأقول لهم أين هى الوثائق وأين هى الأموال ، سأقول لهم كل شىء ، كل شىء .

من حسن الحظ أنه لم يستمع لكلامى ، أو لعله أعرض عن سماعه .

كنت قد بلغت حافة الهاوية ، فاذا بحادثة تقع على غير انتظار ، رجوت أن يكون فيها خلاص نفسى ولو لزمن ما ، كانت حجرتى قد شملتها عتمة غروب قاتم

لبوم من أواخر أيام شهر يوليو ، انى أذكر بوضوح زمن الحادثة لأنه مرتبط فى ذهنى برؤينى المطر وهو ينهمر على زجاج نوافذ الدهليز وأنا مقود للتحقيق ، أشير الى أن أبقى فى حجرة الانتظار ، اذ كان من بين قواعد الخطة أن انتظر ، يمضى على وقت وأنا فى انتظار الدخول الى القضاة . وتبدأ خطة زلزلة أعصاب المتهم بايقاظه فجأة فى عز الليل ، فاذا تمالك جأشه وشحد عزمه استعدادا للتحقيق أبقوه ينتظر ، ينتظر بلا طائل ساعة وساعتين وثلاث ساعات من قبل بدء التحقيق ، كل هذا من أجل أن يسلم وهو صاغر قياد جسمه وروحه .

بقيت واقفا فى حجرة الانتظار لا أقل من ساعتين كاملتين ، حدث هذا يوم الخميس ٢٧ يوليو ، سأقول لك لماذا بقيت أذكر على وجه التحديد تاريخ ذلك اليوم : وجدت أمامى « تقويما » معلقا على الجدار ، لم آبه للخدر الذى دب فى ساقى وفى جذعى من طول وقفتى — اذ كان الجلوس محرما على — وأخذت بدافع من التعطش للقراءة النهم بعينى رسم تاريخ اليوم على التقويم بحروفه وأرقامه — ما هى الا عبارة صغيرة لا تزيد عن « ٢٧ يوليو » ، ثم عدت الى الانتظار ، الى مراقبة الباب ، أسأل نفسى : ترى متى ينفتح ؟ أفكر فى تخمين الأسئلة التى توجه الى هذه المرة وأنا عالم أن أسئلتهم ستختلف عما أظنه .

وبالرغم من قلق الانتظار — كنت أحس بشىء من الراحة لانتقالى من حجرتى الى حجرة أخرى .. هى أكثر اتساعا ، تنيرها نافذتان ، ليس بها فراش ولا حوض ، ليس فى جدرانها شقوق مثل تلك التى رأيتها

أكثر من الف ألف مرة فى حجرتى ، ولون الطلاء أيضا مختلف ، والكرسى أمامى غير كرسى حجرتى ، على يسار الباب خزانة ملأى بالملفات ، ومشجب معلق عليه ثلاثة أو أربعة معاطف عسكرية مبللة بالماء هى معاطف جلادى .

هكذا أتيح لى أن أرى أشياء جديدة ــ أخيرا وجدت شيئا جديدا ، والتهمتها نظرتى بنهم وهى تتشبث بها ، أخذت أتأمل كل ثنية فى قماش المعطف ، وأتنبه مثلا لنقطة مطر مستقرة على ياقته المبتلة ، وتملكنى شغف يبدو لك سخيفا : أن أظل أرقبها بلهف لأرى هل تنزلق عن مكانها أم تظل عالقة به ، بقيت أرقبها وأنا ألهث فترة من الزمن كأنما حياتى معلقة بها ، فلما رأيتها تسقط انتقلت الى عد الأزرار على كل معطف ، ثمانية على الأول والثانى وعشرة على الثالث ، ثم أخذت أقارن بين شاراتها . كانت نظرتى تنهل من هذه الأشياء الهينة وترتوى وتلتذ بشغف لا تستطيع الكلمات التعبير عنه .

ثم دققت نظرتى فجأة على شىء مختلف ، شىء انتفخ به جيب معطف فاقتربت وظننت أننى أتبين تحت القماش المشدود شكلا مستطيلا يوحى بأنه كتاب ، كتاب .. ارتعشت ركبتاى . كتاب . كان قد مضى على أربعة أشهر لم أتناول خلالها فى يدى كتابا ، فبهرنى مجرد تصور وجود كتاب فى جيب المعطف ، كتاب أظفر فيه برؤية الكلمات المصطفة ، والصفحات ، والأوراق أقلبها كما أشاء ، كتاب يتيح أن أطلع فيه على أفكار رجل آخر ، أفكار جديدة ، علها تشغلنى عن أفكارى ، وأستطيع أن احتفظ بها فى ذاكرتى ، يالها من لقية مثيرة مسعدة معا وكأن نظرتى جذبها سحر مغناطيسى فتسمرت على الجيب المنتفخ الذى بان بداخله شكل

كتاب ، واتقدت نظرتى كأنما تريد أن تحدث ثقبا فى جيب المعطف فلم أتمالك نفسى وتقدمت خطوة ، سرت النار فى أصابعى لمجرد التفكير فى اننى سألمس كتابا ولو من تحت غطاء ، واذا بى أجد نفسى وأنا لا أشعر أتقدم خطوة أخرى .

لم ينتبه الحراس لحسن الحظ الى غرابة مسلكى ، لعلهم رأوا من الطبيعى أن يعمد رجل ظل واقفا مدى ساعتين الى الاستناد الى جدار الحجرة .

نجحت فى الاقتراب من المعطف ووضعت يدى خلف ظهرى لالمس بها الجيب خلسة ، ودلنى جسى له أن بداخله جسما مستطيلا غير جامد يسمع له عند الضغط عايه حسيس خافت ، كتاب . أى نعم كتاب ولا ريب . ولمعت فى ذهنى فكرة كالبرق ، حاول أن تسرقه ولعلك تنجح فتخبئه فى حجرتك وتقرأه ثم تقرأه ، انك واجد اخيرا شيئا جديدا .

لم تكد هذه الفكرة تخطر ببالى حتى سرت فى كيانى كالسم الزعاف ، أخذت أذناى تطنان ، وقلبى يخفق ويداى المثلجتان مشلولتان .

ولما انقضت بوادر دهشتى أخذت التصق بالمشجب بحركة محتالة ماكرة ، وأنا لا أرفع نظرى عن الحارس ، ورفعت الكتاب شيئافشيئا خارج الجيب ، ها هو ذاينفلت أطبقت عليه يدى فاذا هو كتاب صغير قليل الصفحات ، حينئذ تملكنى الخوف مما فعلت وتمنيت أن لا أكون قد فعلت ، ولكنى كنت حينئذ قد أصبحت عاجزا عن التراجع واصلاح زلتى ، سعيت ـــ مبقيا يدى وراء ظهرى ـــ حتى أفلحت فى دس الكتاب فى سروالى من تحت الحزام ، واخذت أدفعه برفق حتى استقر على قمة فخذى ، وضع يتيح لى أن اضغط على الكتاب

بيدى حين الصقها بزيق سروالى كما تلزمنى مشيتى العسكرية المفروضة على .

أصبح أمامى الآن أن أعرف مقدار نجاح هذه الحيلة ، فابتعدت عن المشجب ومشيت خطوة وخطوتين وثلاثة نجحت حيلتى ولم يسقط الكتاب ما دمت لاصقا يدى على زيق سروالى ناحية الحزام .

ثم بدأ التحقيق معى ، فاقتضانى جهدا يفوق كل جهد سابق ، لأن كل اهتمامى لم يكن منصرفا الى التحقيق ، بل مركزا على الكتاب وعلى حيلتى فى امساكه داخل سروالى .

ومن حسن الحظ أن جلسة التحقيق كانت قصيرة ذلك اليوم وعدت الى حجرتى بالكتاب سالما غانما ، لا أحب أن أطيل عليك بذكر ما حدث بالتفصيل ، يكفى أن تعلم أن الكتاب انزلق من موضعه وأنا أسير فى الدهليز ، وكان لابد لى ن أزعم سعالا طارئا قد استبد بى وقوس ظهرى . زعمت هذا من أجل أن أميل على ركبتى وأزحزح الكتاب خلسة لأعيده الى سابق مكانه ، ولكن هيهات لى أن أنسى تلك اللحظة التى عدت فيها الى حجرتى فأجدنى وحيدا — ومع ذلك فى رفقة لا تقدر بثمن .

أنت تحسب ولا ريب أننى سارعت حينئذ الى اخراج الكتاب من مخبئه لأتصفحه واقرأه . « كلا » لم أفعل شيئا من ذلك ، أن مجرد وجود هذا الكتاب معى فرحة غمرت قلبى فأردت أولا أن أستمتع بها الى أقصى مداها ، وأخرت عمدا لحظة تصفحى للكتاب لأسبح فى أحلام لذيذة تطوف بمضمونه .

تمنيت بادىء الأمر أن تكون حروفه دقيقة جدا وصفحاته ملأى بالأسطر والكلمات مطبوعة على ورق

رقيق حتى أظفر بقدر كبير أقرأه . وتمنيت أيضا أن يكون كتابا يعالج موضوعا عويصا يتطلب لفهمه جهدا عقليا كبيرا ، أو موضوعا يلذ حفظه عن ظهر قلب ، ديوان شعر مثلا . وحبذا لو كان — بالشطط أحلامى — ديوان جوته أو الياذة هومير وأخيرا غلبنى فرط لهفتى وهياج ارتقابى ، فرقدت على الفراش فى وضع يخفى حركة يدى بحيث لا أنير انتباه الحارس اذا دخل على فجأة ، وأخرجت الكتاب بيد مرتعشة من تحت الحزام .

ما كدت ألقى اليه نظرة حتى صرعتنى الحسرة وخيبة الأمل ، هذا الكتاب الذى جازفت باختلاسه أعظم المجازفة ، معرضا نفسى لأفظع الأخطار ، والذى الهب رأسى ورفع أحلامى الى عنان السماء ، لم يكن الا كتابا عن لعبة الشطرنج . ولو كنت غير حبيس فى حجرة مغلقة لطوحت بهذا الكتاب فى غيظ شديد ، وألقيت به من النافذة ، فما انتفاعى بمثل هذا الكتاب ؟ قد سبق لى وأنا فى المدرسة الثانوية — شأن بقية زملائى — ان لهوت فى يوم غلبنى فيه الملل بتحريك قطع الشطرنج فوق الرقعة ، فكيف أنتفع بكتاب لا يتضمن الا دراسة نظرية لهذه اللعبة ، وكيف يتسنى اللعب دون شريك بل دون رقعة الشطرنج وقطعه .

وأخذت أتصفح الكتاب وأنا ضائق الصدر آملا أن أجد فيه على الأقل سطورا تقرأ ولو كانت قليلة ، مقدمة فى أوله أو تنبيهات الى القارىء . ولكنى لم أجد فيه الا رسوما لأدوار شهيرة ، تحتها رموز لم أفهمها أول الأمر ، ب٢ ، ج٤ ، هـ٥ وهكذا . كانت بمثابة رموز جفر لا أملك مفتاحه .

وقليلا قليلا فهمت أن الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، الخ الخ تشير الى المربعات الراسية وأن الحروف ا ، ب ، ح ، د ، الخ الخ تشير الى المربعات الأفقية وباقتران الرمزين يمكن تحديد موضع القطعة وكلما تحركت من مربع الى مربع ، هذه الرموز هى بمثابة لغة خاصة .

فقلت لنفسى لعلك تستطيع أن تتخذ من شىء فى حجرتك بديلا للرقعة ثم تحاول أن تلعب هذه الأدوار الوارد ذكرها فى الكتاب ، وانتبهت الى أن فراش

غطائى مرسوم لحسن الحظ على هيئة مربعات فاذا طبقته بعناية صح ان يكون رقعة شطرنج من ٦٤ مربعا خبأت الكتاب تحت الحشية بعد أن مزقت أول أوراقه ثم نزعت من الخبز الذى يصرف لى لبابته وعجنت منها اشكالا على هيئة قطع الشطرنج كلها ، لم تكن مشابهتها للاصل تامة ، ولكنى نجحت بعد مشقة كبيرة أن أضعها على غطاء فراشى وأحركها طبقا لنص الكتاب .

ومع ذلك حين حاولت أن أتم الدور وجدتنى عاجزا عن المضى فيه الى النهاية ، لأنى كنت أخلط بين هذه الأشكال المضحكة التى اتخذتها من لبابة الخبز ، ذلك اننى لم استطع أن افرز منها نصيب اللون الأسود الا بفضل علامة هينـــة التمستهـــا من غبـــار حجـــرتى ، فاضطررت ان أعيـــد الدور من أوله عشرا وعشرين وثلاثين مرة ، ومن ذا الذى يملك من الوقت أكثر مما أملك ؟ ومن ذا الذى يقدر على أن يفوقنى فى اللهفـــة والصبر معا ؟

وبعد ستة أيام نجحت فى ان أتم الدور . ثم بعد ثمانية أيام لم أعد فى حاجة الى هذه الأشكال المضحكة لأحدد مواضع القطع وهى تنتقل حركة بعد حركة الى ان يتم الدور ، وبعد أسبوع استغنيت أيضا عن غطاء فراشى . ذلك انى حين بدأت أقرأ رموز الكتاب ب ١ ج ٢ ، هـ ٨ الخ الخ كنت أدرك دلالتها ولكنى أعجز عن تصورها لأنها ليست من واقع محســـوس ، ثم أصبحت أكتفى بتصورها فى مجال الخيال وحده وتم انتقال احتياج التصور من الواقع الى الذهن وحده ، فترتسم الرقعه فى ذهنى ، وكذلك القطع أيضا ، بل تتحرك طبقا لأوامر الكتاب فى ذهنى أيضا ، أصبحت كالموسيقى المجرب تكفيه نظرة واحدة الى النوتة حتى

يسمع من فوره اللحن الأساسى وما يصاحبه من أنغام هارمونية .

وبعد تدرب استمر خمسة عشر يوما استطعت أن أرسم فى ذهنى سير كل الأدوار — الواردة فى الكتاب وادركت حينئذ أى نعمة جليلة خلعتها على سرقتى له ، أصبحت أملك وسيلة لأعمال الفكر ، وسيلة لاثمرة لها قد تقول هذا ، ولكنها مع ذلك تحررنى من أسر العدم . فقد أصبحت أمتلك بفضل هذه الأدوار المائة والخمسين سلاحا ماضيا ينقذنى من رتابة الزمان والمكان .

ولكى أحتفظ بطرافة شغلتى الجديدة ، قررت أن أضع نظاما ما أقسم به يومى قسمين ، دوران العبهما فى الصباح ودوران فى العصر ، ثم اعادة سريعة بالليل للادوار الأربعة . هكذا نظمت وملأت فراغه بدل أن أترك نفسى عائما لا تقودنى الا نزواتى ، ولم أحس بارهاق ، لأن لعبة الشطرنج تختص بميزة عجيبة هى أنها لا تتعب الذهن ، بل بالعكس تجدد صفاءه ونشاطه . ذلك ان اللاعب يركز كل قواه الذهنية فى حيز محدود ، حتى لو كانت مشكلته عويصة .

وكنت أول الأمر أنقل القطع وكأن الكتاب هو الذى يحرك يدى ولكنى بعد ذلك بدأت انتبه الى الفكر المسير لهذه الحركات ووجدت فى انتباهى هــذا لذة كبيرة ، وأدركت ما فيه من ذكاء وحيلة لطيفة فى الدفاع والهجوم . ووجدت فى تجميع القطع بترتيب معين فنا وأصولا نفذت الى أسرارها ، بل استطعت بعد قليل أن أتبين خصائص أسلوب كل لاعب شهير ، كما يتبين الذواقة الخبير وهو يتلو أبياتا قليلة من الشعر أى شاعر نظمها .

هذه اللعبة التى لم أجد فيها أول الأمر الا وسيلة لقتل الوقت أصبحت عندى متعة ذهنية لذيذة ، ووجدتنى

فى صحبة جميلة تنقذنى من وحدتى ، وأنا أعاشر بذهنى أئمة الشطرنج من أمثال اليكين ولاسكار وبوجولجوبوف وتاتاركوبر .

اكتسحت تيارات من التجدد ما فى حجرتى من ركود صامت ، وعاد لذهنى اطمئنانه بفضل سلامة المنطق فى هذه التمرينات التى شغلتنى ، بل ان التزام هذا المنطق بحدود واضحة لا يخرج أبدا عنها أضفى على ذهنى صفاء جديدا سرعان ما ظهر فى التحقيق . فقد دربتنى رقعة الشطرنج — وأنا لا أدرى — على احكام خطتى فى التحقيق وتفادى كل فخ ومكر ، وأصبحت قواى لا تتضعضع أمام القضاة ، وخيل الى أنهم بدأوا ينظرون الى باحترام ، لعلهم تبادلوا العجب فيما بينهم ، وحاروا فى تعليل سبب ثباتى بصلابة على حين يتحطم الآخرون بين أيديهم .

طالت ثلاثة أشهر تقريبا هذه الفترة السعيدة فى حياتى ، حين كنت ألعب هذه الأدوار المائة والخمسين التى وجدتها فى الكتاب ، ثم فرغت جعبتى ووجدت نفسى من جديد فى قبضة العدم ، فان لعب الدور الواحد عشرين أو ثلاثين مرة يفقده طرافته ويستنفد سحره .

فما جدوى اللعب اذا كنت أحفظ من قبل عن ظهر قلب كل حركة ، الحركة الأولى تعقبها الحركة الثانية على التو ، هو عمل آلى ، لا يمدنى بمفاجاة أو مشكلة عويصة أعمل لحلها ذهنى .

وكان غير متاح لى أن أجدد هذه المتعة التى أصبحت لا أستغنى عنها الا اذا عثرت على كتاب جديد فى الشطرنج ، يتقدم بى خطوة أخرى ، ولم يبق لى من مخرج الا أن أخترع أدوارا أخرى حاولت أن ألعبها بينى وبين نفسى ، أو ان شئت ضد نفسى .

لا أدرى اذا كنت أنت قد فكرت من قبل فى اثر الشطرنج ــ ملك الالعاب ــ على من يمارسه وكيف يجد نفسه أسير مزاج فريد ، انه لعبة لا دخل للحظ فيها ، كل سحرها كامن فى مسألة واحدة : هى النزال بين ذهنين ، كل منهما له خطته المضمرة وأسلوبه ، ان هذه المعارك العقلية تنجم من أن صاحب اللون الأسود لا يعرف خطة صاحب اللون الأبيض ، فيحاول كل منهما أن يحرز مرمى غريمه ليفسده عليه .

فاذا كان الغريمان هما شخص واحد فانه سيجد نفسه فى تناقض : كيف يجمع بين اتخاذ دور اللاعب صاحب الدور الأبيض ويرسم خططه ويستر هدفه ، وبين اتخاذه دور صاحب اللون الأسود ويزعم لنفسه أنه ينسى أو يتجاهل سبل علمه بخطة غريمه ، حتى لا تتأثر خطته بسابق علمه هذا ؟ . ان هذا الازدواج فى الفكر يتطلب ازدواجا فيه انفصال تام بين وعى ووعى ، وهذا يدل على أن الارادة قادرة على حجز ملكات العقل بعضها عن بعض ، كما تفصل فى الآلة بعض أجزائها عن بعض .

وحملنى اليأس على ان أسلم نفسى لهذا العبث عدة أسابيع ، اذ كانت ظروف معيشتى تفرض على هذا الازدواج فى ذهنى بين نفسى وأنا العب باللون الأبيض ، وبين نفسى وأنا العب باللون الأسود . لا نجاة لى الا بهذا ان اردت أن لا يحطمنى العدم المخيف الذى يحيق بى من كل جانب .

مال السيد « ب » الى الوراء واسند راسه الى الاريكة ، ثم اغمض عينيه لحظة ، وخيل الى انه يحاول اقصاء ذكريات مزعجة ، وغلبته عادته التى استوقفت

نظري ودهشت لها من قبل ، فالتوى طرف فمه دلالة على هزة أعصابه ، ثم اعتدل محدثي واستطرد :

أظن أن حكايتي الى الان قد بدت لك واضحة ، ولا أدرى اذا كان هذا سيكون حالها فيما بقى منها . ان شغلني الجديدة كانت تفرض على توترا ذهنيا شديدا ، أصبح من المحال معه أن أملك قياد نفسي ، لعلني كنت أجد مخرجا من مأزقي — وان يكن ضئيلا — اذا اتيح لي أن أجلس الى رقعة تلمسها يدى ، بحيث يتأتى لي أن أتحول من عالم الخيال الى عالم الواقع — أمام رقعة وقطع شطرنج أحركها فتترجم سير أفكاري ويتاح لي التنقل بجسمي من طرف المنضدة الى طرفها المقابل ، وأحكم بذلك على سير اللعب تارة من وجهة نظر اللاعب باللون الأبيض وتارة من وجهة نظر اللاعب باللــون الأسود .

ولكني كنت مجبرا على أن أنازل خصما هو أنا ، أو ان شئت أنازل نفسا أنتزعهـا من نفسي وافترض وجودها ، وكان هذا الازدواج يتطلب مني أن أرسم بذهني صورة واضحة لتوالي الحركات وما يجده كل لاعب فرصة متاحة أمامه ، بل أن أرسم في ذهني أيضا — وقد يبدو لك هذا القول من قبيل الخرافة ست أو سبع حركات قادمة للاعب من أجل أن أرسم مثلهـا للاعب الاخر ، وما هذان اللاعبان الا أنا .

أصبحت صاحب ذهنين منفصلين واحد أبيض والآخر أسود ، فبهذا وحده أستطيع أن ألعب بالخيال في فراغ ، وأن أرسم في الفراغ أيضا حركات كل خصم من الخصمين طبقا لخطته .

وكان أكبر خطر يتهددني لا يكمن فحسب في هــذا الازدواج الذهني داخل نفسي ، بل في أن المعركة كلهـا

لا تجرى الا فى عالم الخيال . كادت قدمى تنزلق فجأة وأتردى فى هوة الجنون .

كنت من قبل — اذا أعدت دورا من الأدوار الشهيرة فى الكتاب — لا أقوم بعمل بزيد عن نقل صورة عن أصل، لا يتطلب منى جهدا يفوق جهد تذكر قصيدة أو نص مادة فى حدود ضيقة ، داخل ذهن تربيته خاضعة لنظام وقواعد شأن تربية التلميذ فى المدرسة .

وداومت فى غير لهفة واضطراب على لعب دورين فى الصباح ومثلهما فى المساء ، واصبح اللعب شغلتى المألوفة وكنت اذا هفوت أثناء اللعب أو ترددت طلبت النصح والعون من الكتاب .

واذا كنت قد وجدت فى هذه الشغلة نجاتى فانما يرجع الفضل الى أننى كنت أنا نفسى غير نازل فى الميدان ، لا يهمنى فى شىء أن يكسب الأبيض أو الأسود ، انه نزال بين لاعبين شهيرين يبتغى كل منهما الوصول الى مرتبة البطولة ، اما لذتى أنا فهى لذه المتفرج أو الخبير الذى يراقب بمنعة سير المنازلة وبراعتها وجمالها .

وفى اللحظة التى أبدأ فيها هذا اللعب المزدوج ، كنت أعتبر بلا وعى منى أن المسألة ليست مسألة تسلية ، بل مسألة تحد سافر ومضمر ، وأن هناك نزالا بين اللون الأبيض الذى هو أنا ، وبين اللون الأسود الذى هو أنا . كل منهما يريد الانتصار على الأحزان ان رسم ذهنى للحركات القادمة للون الأبيض يلهب فكرى وأنا العب باللون الأسود ، كل خصم من الخصمين داخل نفسي يجمع بين الفرح والضيق حين يرتكب الآخر هفوة .

حياة لا معنى لها انها كانت كذلك لو أنها كانت لرجل من سوية البشر ظروفه سوية أيضا ، انها حكاية

لا تصدق حكاية كيف تؤدي هذه الحالة الى فصام ذهنى والى ازدواج فى الشخصية عسير على الناس تصوره ، ولكن لا تنس أننى كنت رجلا قد تم انتزاعه بقسوة وعنف من الجو الذى كان يعيش فيه واعتاده ، كنت سجينا بريئا ، تفترسه الوحدة بعذابها منذ ، أشهر ، رجلا تراكم الغضب فى قلبه دون أن يتاح له صبه على شيء أو على رأس انسان ، لم تكن أمامى من تسلية الا هذا اللعب السخيف مع نفسى ، وصببت فيه بعنف سخطى وتلهفى على الانتقام ، كان بداخلى رجل يريد أن يدافع عن حقوقه فلا يجد له منازلة الا مع هذا الخصم الذى يلاعبنى وما هو الا أنا ، لذلك أثار فى هذا اللعب هياجا هو أشبه بالجنون ، كنت أستطيع فى مبدأ الأمر أن ألعب بهدوء وأتريث بين الدورين لأستريح قليلا ، ولكن سرعان ما أبت أعصابى المتوترة أن تسمح لى بالتريث ، فاذا لعبت باللون الأبيض نادانى اللون الأسود وألح على أن ألعب به ، وما يكاد الدور ينتهى حتى يهتز نصف نفسى رغبة فى أن أتحدى النصف الآخر ، اذ كان بين جنبى دائما لاعب خاسر يجأر بطلب الانتقام .

لا أستطيع أن أحدد ولو على وجه التقريب عدد الأدوار التى لعبتها على هذا النحو وأنا متكالب لا أهدأ ، ربما لعبت ألف دور ، وربما أكثر ، كنت كمن تملكه شيطان لا خلاص منه ، ليس فى رأسى طوال اليوم الا « كش الملك . مات الملك » ، وعينى لا ترى الا بيادق وفيلة وقلاعا ، كل كيانى واحساسى مركزان على مربعات قطعة شطرنج .

كان أثر اللعب على أول الأمر هو الفرح ، ثم سرعان ما انقلب الفرح الى تلهف عنيف ، والتلهف الى انصياع الأسير ، ثم الى لوثة وهوس فهياج جنونى يلفنى بالليل

والنهار . لا شيء يشغلنى الا الشطرنج ومسائله وقطعه ، أستيقظ أحيانا بالليل والعرق يتصبب من جبينى فأتبين أننى كنت وأنا نائم لم أنقطع عن اللعب ، واذا رايت فى الحلم أناسا من البشر لا أجدهم يتحركون الا حركة الفرس أو الفيل أو القلعة .

واختلط على فكرى حين كنت أمثل أمام القضاه ، وخيل الى أننى لم أنطق فى الجلسات الأخيرة الا بكلام مبهم غامض ، بدليل أن القضاة تبادلوا النظرات فيما بينهم . هم يتابعون التحقيق ويتشاورون اما أنا ففكرى مشغول بشيء واحد هو انتظارى بدافع من هيام لا ينقطع نهمه لحظة أن أرجع لحجرتى لأعود الى اللعب الجنونى ، العب دورا ثم دورا .. كل معوق عن اللعب يغيظنى ولا أطيقه ، فأتململ اذا دخل الحارس حجرتى ليكنسها مع أنه لا يبقى بها أكثر من ربع ساعة أو حتى حين يدخل ليقدم لى الطعام فلا يمكث الا دقيقتين ، وربما تركت الطعام فى الطبق الى المساء دون أن أمسه اذ كنت قد نسيت أن آكل . لا شيء يرهقنى الا عطش شديد يلهب احشائى ، لعل مرجعه هو ما يصيبنى اللعب به من الحمى ، أو هو من أثر زحمة الأفكار وتصادمها فى راسى . كنت أشرب الاناء كله جرعة واحدة ثم أناشد الحارس أن يأتى لى بمزيد ، ولا أفرغ من الشرب حتى يجف حلقى من جديد لشدة العطش .

وازداد الهياج حتى بلغ درجة أصبحت معها لا أطيق الجلوس على الكرسى لحظة لا أشغل نفسى طول النهار بشيء الا باللعب ، وأن أذرع الحجرة جيئة وذهابا بخطوة نزداد سرعة وعجلة كلما ازداد اقتراب الدور من نهايته

ان شهوة كسب الدور والانتصار ، الانتصار على نفسى انا تحولت الى هوس وهياج جنونى للانتصار ،

للانتصار على نفسى . تحول شيئا فشيئا الى نوع من الهياج الجنونى فأجد جسدى ينتفض من شدة اللهفة اذ أن كل لاعب من اللاعبين الاثنين داخل نفسى يتململ اذا رأى غريمه لا يسرح كما يهوى هو فى اللعب . كل منهما يلاحق الآخر ويؤنبه وهو حانق عليه ، بل كنت انا نفسى أشارك فى هذا الحنق ـــ قـــد يبدو لك هذا القول غاية فى السخف . اذا رايت احد اللاعبين يتلكأ وأزعق له : هيا هيا العب بسرعة ، بسرعة .

أعلم اليوم ولا ريب أن حالتى آنئذ كانت حالة رجل اصيب بمرض عقلى سافر ، لا اسم له عندى الا « هوس ادمان الشطرنج » على غرار هوس ادمان الخمـــر ، وأظن أن كتب الطب لم تدرجه بعد بين الأمراض العقلية، وكانت هذه اللوثة قد سممت روحى وكيانى ، فلحقنى الهزال واضطرب نومى .

وكنت اجد جفنى حين استيقظ فى ثقل الرصاص فلا افتحهما الا بمشقة ، وزاد ضعفى حتى أن يدى أصبحتا لا تقويان على رفع كوب الى شفتى الا بارتعاش وجهد بالغ ، ولكن ما أكاد ابدأ اللعب حتى أجد نشاطى يتقد بدافع من قوة وحشية ، أذهب وأجىء ويداى مضمومتان ، وأسمع أحيانا كثيرة وكأنما من خلال ضباب ملوثة بالحمرة ـــ صوتى أنا يأتينى من بعيد هاتفا بلهجة جافة قبيحة « كش الملك . مات الملك » .

لا أستطيع أن أصف لك اليوم كيف حدثت الأزمة . غاية ما أعرفه أننى استيقظت ذات صباح على حال غير حالى المألوفة لى كل يوم ، احسست أن جســـدى قد نجا من استبدادى وشاق له أن يبقى مسترخيا فى الفراش وشعرت بتعب شديد لم أعهده من ســـابق

منذ شهور ، هو الذى أثقل جفنى وأذاقنى سـعادة كبرى ، هى سعادة الشعور بالراحة وانقشاع العناء ، فلم أشأ أن أفتح عينى على الفور وبقيت بضع دقائق على هذا الحال أتنعم فى كسل لذيذ باسترخائى فوق فراشى .

وفجأة خيل الى أننى أسمع من خلفى أصوات أناس تتدفق فيها الحرارة والحياة ، ويدور على ألسـنتهم كلام هادىء هيهات لك ، أن تتصور مقدار حبورى — أنا الذى لم أسمع منذ شهور من قضاتى الا لهجـة جافة قبيحة فقلت لنفسى : أنت تحلم . أنت تحلم فاياك أن تفتح عينيك ، وأدم عليك دنيا الأحلام بدلا من أن تعود ترى من جديد حجرتك الملعونة والكرسى والحوض ونقش الورق الراسخ كالأزل .. أنت تحلم ، اسـتمر فى حلمك .

ولكن حب التطلع غلبنى ، ففتحت عينى على مهـل وبحذر ، ويالشدة العجب ! وجدت نفسى فىحجرة أخرى حجرة أفسح من حجرتى ، يدخل اليها النور حرا من خلال نافذة ليس عليها سياج من حديد ، ورأيت من ورائها — بدلا من الجدار الكئيب الذى طالما ألفته — أشجارا خضراء يراقص الريح أوراقها ، الحجرة مطلية بلون أبيض لامع ، وغطاء الفراش أبيض أيضا ، نعم ، حقا كنت فى فراش آخر غير فراشى ، فراش جديد على ، اننى اذن لم أكن أحلم ، فها هى ذى أصوات الناس تتحدث برفق خلفى .

لا شك أننى هجت حين فوجئت بهذا كله ، اذ انجهت نحوى على الفور خطى مسرعة ، واقتربت منى امرأة على رأسها غطاء أبيض تمشى مشية نشطة ، انهـا ممرضة !

أخذتنى هزة من الفرح والسرور اذ كنت لم أر امرأة منذ سنة . لاريب أننى حملقت الى هذا الطيف الجميل بنظرات فيها توهج السعادة ولها لهيب، اذ قالت المرضة لى «اهدأ . اهدأ ولا تتحرك» لم أكن ألقى بالى الا لسماع نبرة صوتها لأنها — أخيرا ! — نبرة صوت انسان ، اذن فالدنيا لايـزال بها اناس هم غير قضـاة وغير جلادين ، لايزال بها — يالمعجزة ! هذه المرأة ذات الصوت الرقيق العطوف الذى يكاد ينطق بالحنان. وثبتت نظرتى على هذا الفم الذى تحدث الى بطيبة ، اذ ان هذا العام اللعين الذى قضيته فى حجرتى كان قد انسانى أن الطيبة لم تمح من عالم البشر .

وابتسمت المرضة لى ، نعم ابتسمت اذن فالدنيا لم تخل من انـاس يبتسمون . ابتسمت ثم وضعت اصبعها على شفتيها محذرة لى ، ثم ابتعدت .

أفيتأنى لى أن أطيعها ؟ عصيتها — على الضد — وبذلت جهدا كبيرا من أجل أن اعتدل وأجلس فوق الفراش لأتأملها بنظرتى، لأتأمل مرة أخرى هذا المخلوق السمح الذى هبط على هبوط المعجزات ، وأردت أن أستعين بيدى فلم أستطع ، اذ كانت اليمنى مختفية فى لفائف من قماش ابيض ، لا شك أنها ضماد . تأملتها أول الأمر بدهشة ثم بدأت أدرك على مهل أين أنا ، وأفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث لى ، لاريب أنهم أصابوا يدى بجرح أو لعلى جرحتها أنا نفسى وهـذا هو سبب وجودى بالمستشفى .

وزارنى طبيب عصر ذلك اليوم ، رجل شيخ طيب . لم يكن اسمى مجهولا عنده ، وتحدث عن عمى طبيب الامبراطور بكل احترام . واحسست على الفور انه

يريد لى الخير ، ووجه الى أثناء الحديث أسئلة عديدة من بينها سؤال عجيب له ، اذ قال لى :

ـــ هل أنت متخصص فى الكيمياء أو الرياضة ؟

فنفيت له ذلك فتمتم .

ـــ عجيب ! انك كنت تنطق فى هذيانك بأرقام وحروف مثل ج ٣ و هـ ٨ عبارات لم نفهم نحن منها شيئا .

سألته عما حدث لى فابتسم ابتسامة غريبة وقال :

ـــ شىء غير ذى خطر ، انها أزمة عصبية حادة .

ثم تمتم بصوت خافت وهو يلقى من حولى نظرة مستريبة .

ـــ هذا شىء طبيعى ، فأنت بقيت هناك منذ ١٣ مارس . اليس كذلك .

اومأت له برأسى نعم ، فغمغم .

ـــ هذا ليس بالغريب . انه متوقع من خطئهم ، ولست انا الأول ، ولكن دع عنك الان كل قلق .

أحسست من لهجته ونظرته الى أننى أصبحت فى يد مأمونة .

وفى زيارة له أخرى بعد يومين أخبرنى بما حدث ان الحارس سمعنى وأنا أتحدث فى حجرتى بصوت مرتفع يشبه الصراخ ، فظن لأول وهلة أن بها معى رجلا غريبا ، وأننى تلاحمت واياه فى عراك شديد ، لم يكد الحارس بفتح البـــاب ويدخل حتى هجمت عليه وكنت أصرخ صرخات وحشية .

ـــ هيا . هيا أيها الوغد ، أيها الجبان .

ثم حاولت أن أطبق يدى بعنف على رقبته فصرخ يطلب النجدة وحمـــلونى الى الطبيب فأفلحت وهـــم ســـائرون بى فى أن أتملص من قبضـــتهم ـــ وقذفت بنفسى الى نافذة الدهليز فى نوبة من الهياج الجنونى ،

فكسرت زجاجها وأصابنى بجرح فى يدى ـــ ها أنت ذا ترى اثره الى اليوم ـــ كنت أصبت بشىء يشبه الحمى المخية حين نقلونى الى المستشفى ، ولكنى عدت سريعا الى وعبى ..

وهمس لى الطبيب الطيب القلب .

ـــ بطبيعة الحال لن اقول لهؤلاء السادة انك تماثلت للشفاء ، فانهم قادرون على أن يبدأوا معك من جديد ، واعتمد على ، اننى باذل كل جهدى من أجل انقاذك .

وأجهل أى تقرير قدمه هذا الصديق العزيز الى جلادى ، الذى حدث هو استجابتهم الى طلبه ـــ أى الافراج عنى ، لعله شهد لهم بأننى رجل معتوه ، أو لعلهم هم رأوا أن شخصى لم يعد يهمهم ، لأن هتلر كان قد احتل تشيكوسلوفاكيا ، وأيقن أن سلطانه على النمسا أصبح مأمونا لا يخاف عليه .

وقدمت تعهدا بأن اغادر الوطن فى بحر خمسة عشر يوما . وغرقت خلال هذه الفتره كلها فى اجراءات السفر للخارج كما هى معهودة اليوم ، استخراج شهادات من ادارة القرعة ومن الشرطة ، الحصول على جواز سفر وتأشيرة للخروج وتأشيرة لدخول البلد الذى اقصده وشهادة طبية ، فلم يبق لى وقت للتفكير فى الماضى .

ويخيل الى أن فى المخ قوى خفية منظمة ، تستبعد فورا ، ومن تلقاء ذاتها ، كل ما يصيب الروح بضرر ، وبسبب هذا كنت اذا حاولت استعادة فترة السجن فى ذهنى ، خانتنى ذاكرتى ولم تسعفنى ، ثم لم استطع أن استعيد فى ذهنى ما حدث لى الا بعد أسابيع عديدة ، حين وجدتنى على ظهر السفينة .

أنت ولا ريب تدرك الآن لماذا عاملت أصدقاءك معاملة

شاذه ، كنت أقضي الوقت فى حجرة التدخين بين كسل وتراخ ، فاذا بى أرى هؤلاء السادة يجلسون الى رقعة الشطرنج ، فسمرنى فى مكانى شعور بالدهشة والخوف ،اذ كنت قد نسيت تمام النسيان أنه فى الامكان لعب الشطرنج على رقعة ملموسة وبقطع مرئية ، نسيت أنه لعبة تتطلب لقاء شخصين مختلفين يتخذ كل منهما مقعده تجاه الآخر ، واعترف لك أنه لزمنى بعض الوقت لأتبين أن هؤلاء السادة مقبلون على عين اللعبة التى كنت العبها فى محبسى ، حين كنت أعمد من شدة اليأس الى أن العب بنفسى ، ووضح لى أن الأرقام والحروف التى كانت عدتى فى تدريبى العصيب على لعبة الشطرنج ليست الا رموزا للقطع والمربعات . وكان لذهنى حين رأيت ان حركة القطع الملموسة على الرقعة تطابق حركات القطع الموهومة فى خيالى دهشة تماثل دهشة الفلكى بعد أن يحدد على الورق وبالحساب وحده ، موقع نجم، ثم يرى فجأة جرمهذا النجم يتلألأ لعينهلأول مرة فى صفحة السماء .

نبتت نظرتى على الرقعة لأشاهد عليها كيف أن ارقامى وحروفى تجرى ترجمتها الى حركات ، فرس وقلعة ، ولزمنى لكى أحكم على مركز كل من الخصمين أن انقل رموزى من عالم الخيال الى ما يجرى فى عالم الواقع الذى تراه عينى ، وشيئا فشيئا غلبنى الشوق فنسيت كلأدبى وتدخلت فىاللعب،ان الهفوة التىاوشك أن يقدم عليها صديقك ، كانت بمثابة طعنة فىقلبى ، فأمسكت ذراعه بحركة غريزية وبلا تفكير كما تمسك بطفل يغالى بالميل بجسمه فوق سور شرفة ، ولم أدرك الا فيما بعد سماجة فعلتى .

سارعت الى تطمين السيد « ب » وقلت له اننا جميعا

نشكر هذه الصدفة التى أتاحت لنا معرفته ، وأضفت متحدثا عن نفسى أننى شديد اللهفة بعد سماع حكايته على مشاهدة لعبه فى الغد . .

بدأ عليه شىء من القلق وقال :

لا تفرط فى الوهم ، ان الأمـــر بالنســبة الى لــن يكون الا بمثابة تجربتى لنفسى ، نعم أريد أن أعرف ما اذا كنت قادرا على لعب الشطرنج كما يلعبه بقية الناس على رقعة ملموسة وقطع مرئية ، وضد خصم كائن امامى ، اذ لا يزال يخامرنى شك فى قدرتى على أن افعل هذا ، فهل هذه الأدوار المائة أو الألف التى لعبتها وحدى جرت طبقا للقواعد ولأصول ؟ أو أنهـــا أوهـــام خيال تشبه هذيان محموم يتخطى فى قفزة صلات الواقع بين فعل وفعل .

ثم استطرد :

ـــ أنت ياصاحبى غير جاد فيما أرجو اذا ظننت أننى سأطاول بطلا عالميا أو انتصر عليه . . الشىء الوحيد الذى يهمنى هو أن اعرف بدليل قاطع ما اذا كنت قد لعبت الشطرنج حقا فى حجرتى بالفندق ، أو اننى كنت حينئذ مجنونا ، أو بكلمة واحدة : أريد أن أعرف هل جاوزت الآن ام لم أتجاوز بعد منطقة الخطر ، هذا هو غرضى الوحيد من اللعب غدا .

سمعنا آنئذ رنة « الجونج » تدعونا الى العشاء وكان حديثنا قد دام ساعتين تقريبا ، لاننى رويت هنا كلام السيد « ب » بشىء كثير من الاختصار ، فشكرته بحرارة وودعته ، ولكنى لم أكد ابتعد عنه حتى جرى خلفى ، وقال فى هياج بلغ من حدته أن كلامه انقلب الى فأفأة :

كلمة أخرى ، لا أحب ان يسوء أدبى مرة ثانية ، قل

لأصدقائك أننى لن ألعب الا دورا سيكون نهاية حكاية قديمة وخاتمة قاطعة لا بداية من جديد ، اذ لا أود ابدأ أن تفترسنى ثانية حمى اللعب أو جنون اللعب ، كلما ذكرت ذلك سرت الرعدة فى بدنى ، بل ان الطبيب حذرنى بكلام صريح من العودة للعب ، فان الرجل الذى يصاب بلوثة قد ينتكس رغم شفائه ، وانه من الخير لرجل غاله مثلى هذا الخمر أن لا يقترب مرة أخرى من رقعة الشطرنج . انت تفهم حالى ، اننى لن العب الا دورا وحيدا لأطمئن . هذا هو كل شىء .



وفى تمام الساعة الثالثة من الغد اجتمعت زمرتنا فى حجرة التدخين ، وانضــم الينا ضـابطان من طاقم السفينة ، هما من هواة الشطرنج بعد ان حصلا على اذن خاص بمشاهدة اللعب .

لم يتركنا « زينتوفيك » ننتظره هذه المرة ، وبدأت مباراة هيهات أن تنسى ، نازل فيها مواطنى المجهول بطلا تحف رأسه هالة المجد ، وانى لشديد الأسف أن هذه المباراة جرت أمام أناس لا يبلغون مقامهما ، وانها لم تسجل فضاع خبرها كما ضاعت الألحان التى كانت تجرى بها أصابع بيتهوفن على البيانو من وحى الساعة ... قد حاولنا بطبيعة الحال فى اليوم التالى ان نعتمد على الذاكرة وحدها فى تسجيل سير المباراة ، ولكننا لم نفلح ، لأن اهتمامنا كان الى اللاعبين لا الى المباراة بحيث شق علينا تسجيلها فيما بعد .

ان التناقض العقلى بين اللاعبين زاد تمثله فى مسلك كل منهما أثناء المباراة ، زينتوفيك جامد متصلب يلعب وهو أسير خبرته ، لا يهتز ولا يرفع بصره عن الرقعة أما التفكير فانه يقتضى منه بذل جهد جسمانى يشد كل أعصابه ، على حين أن السيد « ب » بقى طليقا ناجيا عن الأسر ، انه يمثل أرقى درجات الهواية ولا يرى فى اللعب الا وسيلة لتسلية لذيذة ، انه يشرح لنا بغير مبالاة بين كل حركة وحركة معنى ما يفعل ، ويشعل سيجارة بيد مرتعشة ولا يلقى نظرة الى الرقعة الا قبل ان يلعب حركته ببرهة وجيزة . هذا هو شأن لاعب يحدس من قبل خطة خصمه .

سار اللعب حثيثا أول الأمر ثم وصل بعد الحركة السابعة أو الثامنة الى وضع ينم عن أن لكل لاعب خطة ثابتة مدبرة ، وبدأ زينتوفيك يطيل تفكيره وفهمنا من ذلك أن المباراة قد بدأت حدها من الجد . وكان ينبغى لى ان أردت الصدق أن اقرر أن وقع المباراة علينا نحن المشاهدين المبدئين لم يكن الا خيبة الأمل ، فكلما توالى تجمع القطع فى أشكال زخرفة هندسية زاد عجزنا عن فهم معناها الخبىء ، لا نصل الى ادراك مرمى كل لاعب ، ولا تبين الظفر الى أى جانب يميل ، كل ما نراه هو قيام اللاعبين بسوق القطع على قائدين للجند لاحداث ثغرة فى حصون العدو ، نرى سير المعركة ولانفهم هدفهما المنشود ، فان اللاعب الخبير مثلهما يدير خطته من قبل بمقدار عدة حركات سابقة .

واقترن جهلنا قليلا قليلا بتعب أحسسنا به وبخاصة فى فترات التريث الطويلة التى يدوم فيها تفكير « زينتوفيك » ، وكان واضحا أن اللاعب التمساوى يضيق ذرعا بهذا البطء ، وأخذت الحظ بقلق أنه بدأ يتململ فى جلسته ، يشعل فى هياج سيجارة اثر أخرى ، أو يخط ملاحظة بيدعجلى ويطلب زجاجات من المياه المعدنية يفرغها على الفور فى جوفه ، وكان واضحا أنه أسرع من « زينتوفيك » مائة مرة فى تدبر حركته اذا وصل « زينتوفيك » بعد تفكير طويل الى قرار وقام بتحريك قطعة بيده الثقيلة ، رأينا صاحبنا يبتسم شأن من توقع هذه الحركة منذ زمن طويل ، ورد عليه من فوره بحركة منه ، ان ذهنه ولا ريب يعمل فى سرعة شديدة بحيث يدرك كل احتمالات الانتصار الباقية لخصمه وكلما زاد بطء « زينتوفيك » زاد قلق غريمه ، ونقلصت شفتاه دلالة على الغضب بل العداء .

ولكن « زينتوفيك » لم يبال قط بمثل هذه المنغصات الهينة ، بل كلما قل عدد القطع على الرقعة زاد تفكيره وطال ، وان بقى لا يتحول عن عبوسه وصمته ، وحين بلغت المباراة الحركة الثانية والأربعين كانت قد دامت ساعتين وثلاثة أرباع الساعة ، وكففنا نحن عن متابعتها الا بنظرة سارحة مضعضعة ، كان أحد الضابطين قد غادرنا وبقى زميله يقرأ فى كتاب ، ولا يلقى نظرة الى الرقعة الا حين يقوم أحد اللاعبين بتحريك قطعة

وفجأة حدث شيء مفاجيء غير متوقع ، كان الدور فى اللعب على « زينتوفيك » ، ووضع سبابته على قطعة الفرس ليحركها ، ، فاذا بالسيد « ب » حين رأى هذه الحركة يتضام جسده كالهرة على وشك أن تثب ، وبدأ يرتعش ، وقدم قطعة الوزير بحركة ثابتة ثم صرخ بلهجة الانتصار :

ـــ انتهينا ، هذا هو القول الفصل .

ثم مال للوراء وعقد ذراعيه على صدره ورمى « زينتوفيك » بنظرة تتحداه وتلمع بلهيب دفين .

انكفأنا على الرقعة لنرى دليل الانتصار الذى أعلنه علينا ، فلم نر أول الأمر شيئا يهدد « زينتوفيك » بالخطر ، وقلنا لاشك أن صرخة صاحبنا ستجد مصداقها فى حركة قادمة ، يشق علينا نحن الهواة المبتدئين قصار النظر ان نراها من قبل ، وبقى « زينتوفيك » وحده جامدا غير آبه بهذه الصرخة كأنه لم يسمعها ، ثم لم يحدث شيء ، الساعة الموضوعة على المنضدة لتقيس الفترة المحددة بين كل حركة وأخرى تسمعنا دق رقاصها وسط صمت مطبق مضت ثلاث دقائق ، ثم سبع ، ثم ثمان ، هذا و « زينتوفيك » باق على ثباته لا يتحرك

ولا يهتز ، وعلى ذلك خيل الى ان سعة منخزيه الثقلين قد زادت من أثر جهد يبذله .

شق على السيد « ب » كما شق علينا احتمال هذا الانتظـــار فنهض قفزا من مقعده وأخـــذ يذرع حجرة التدخين جيئة وذهابا ، بخطى بطيئة أول الأمر ، ثم زادت سرعتها درجة بعد درجة ، وراقبته الزمرة كلها بشيء من الدهشة ، أما أنا فقد تملكنى القلق فقد تبينت أنه رغم حنقه ينقل خطاه فى حيز محدود ، بحيث يظن من يتأمله أن فى وسط الحجرة حاجزا غير مرئى يصده ويجبره أن يعود القهقرى ، وأدركت وأنا أرتعد انه يكرر فى حجرة التدخين مشيه المحدود داخل مجال حجرته فى الفندق ، لابد أنه كان هكذا يمشى ــ الشهور الطوال كالوحش فى قفصه ، يداه متوترتان ، وكتفاه غائران ونظرته الثابتة المحمومة تشع باحمرار وميض الجنون .

غير أنه ظل مع ذلك فى حجرة التدخين مالكا لزمام نفسه ، يلتفت بين الحين والحين وهو نافد الصبر الى المنضدة ليرى ما اذا كان « زينتوفيك » قد لعب حركته .

تسع دقائق ، عشر دقائق مرت هكذا ، ثم حـــدث شيء لم يكن احد منا يتوقعه رفع « زينتوفيك » يده الثقلية ببطء فعلقت به انظارنا ، لنرى ماذا عساه ان يفعل ، ولكن « زينتوفيك » لم يلعب ، بل يعثر قطع الشطرنج بظهر يده ، ولم ندرك على الفور انه يعنى بذلك تخليه عن المباراة وانه يستسلم قبل ان نرى هزيمته حين تقع .

اذن حدث امامنا ما لا يصدقه العقل :

هذا بطل عالمى فاز فى عديد المباريات يلقى سلاحه لرجل مجهول ، لرجل لم يمس رقعة شطرنج منذ خمس

وعشرين سنة وهذا صاحب لنا مجهول ينتصر على أمهر لاعب فى العالم ، أمام حشد من الناس .

نهضنا من مقاعدنا ونحن من الهياج فى غفلة مما نفعل ، كان كل منا يحس أنه ينبغى له أن يفعل شيئا أو يقول شيئا ، لينفس عن انبهاره وجذله أما الوحيد الذى ظل جالسا فهو زينتوفيك ولبث هكذا فترة طويلة رفع رأسه بعدها وصوب الى صاحبنا نظرة قاسية ثم سأله :

ــ هل لك فى دور آخر ؟

اجابه السيد « ب » بحماس انقبض له قلبى .

ــ بكل تأكيد .

ثم جلس من قبل أن الحقه وانبهه الى سابق وعده بأن لا يلعب الا دورا واحدا . .

وبدأ فى سرعة محمومة يصف القطع ، وبلغ من شدة رعشة أصابعه ان فلت منه بيدقان وتدحرجا على الأرض، وتحول الضيق الذى خلفه من فرط هياجه الى لوعة بالغة ، من الواضح أن هذا الرجل الهادىء المسالم قد غاله العناد والهوس ، وعادت هزته العصبية تلوى ركن فمه وأخذ جسده كله يرتعش كأنما سرت فيه حمى مفاجئة .

فمسست اليه برفق :

ــ حلمك ! لا تلعب ، يكفيك اليوم دور واحد فأنت متعب .

اندفع بقهقة ووجهة ينطق بشراسة مذمومة :

ــ هاها ! متعب ! اننى كنت أستطيع أن ألعب سبعة عشر دورا لولا هذا البطء ، لا يكربنى منه الا اننى ابقى معه متقد الذهن يقظا بلا طائل .

ثم التفت الى زينتوفيك وقال له بلهجة عنيفة ، بل تكاد تكون غير مهذبة :

ــ أنت الذى تبتدىء .

ألقى عليه زينتوفيك نظرة هادئة متأنية ، ولكنها تشبه فى قسوتها لكمة من قبضة يد .

أصبح كل خصم يواجه خصمه ينوتر خطر وكراهية طاغية ، لم يعد الاثنان زميلين فى لعبة يحاول كل منهما أن يلتمس منها شيئا من اثبات تفوقه ، أصبح حالهما حال عدوين أقسم كل منهما أن يحطم الآخر .

صبر زينتوفيك طويلا قبل أن يلعب حركته الأولى ، وخيل الى انه يفعل ذلك عن عمد ، لاجرم انه أدرك أن البطء يثير خصمه ويغيظه فاستغله كسلاح شأن الخبير المدرب .

وبعد اربع دقائق طال مرها علينا افتتح زينتوفيك اللعب بحركة بسيطة مألوفة بأن قدم بيدق الملك خطوتين الى الامام . فكان رد السيد « ب » ان قلده وفعل مثلما فعل .

توقف زينتوفيك من جديد ، لا يتخلى عن البطء الذى يغيظ خصمه وكانت قلوبنا تخفق ونحن ننتظر ، شأن من يرى البرق واذا انتظر جلجلة من بعده وجدها تغيب ثم تغيب هذا ، وزينتوفيك ثابت لا يهتز ، يفكر فى هدوء وبطء ، ويبينت بصورة أوضح انه يفعل ذلك عن عمد وخبث ، ومع ذلك حمدت هذا البطء لأنه اتاح لى أن أتأمل السيد « ب » مليا . . كان قد شرب ثلاث زجاجات من المياه المعدنية فتذكرت عطشة الذى كان يلهب جوفه سجنه ، ظهرت لى على هذا الرجل المسكين علامات الهياج المريض ، جبينه مبلل بالعرق ، وأثر الجرح فى يده زاد نطقا واحمرارا وبقى على ذلك زمنا وهو مالك

لزمام نفسه ، ولكنه بعد الحركة الرابعة ـ حين رأى زينتوفيك يطيل تفكيره انفجر وصرخ فيه :

ـ العب ! ماذا بك ؟

رفع اليه زينتوفيك عينا بارده وقال :

ـ لقد اتفقنا ـ ان لم اخطىء ـ على ان فترة التريث بين كل حركة وأخرى مسموح لها ان تمتد الى عشر دقائق وانا من مبدئى أن لا العب بسرعة أكثر من سرعتى هذه .

عض السيد « ب » شفته وبدأت بساقه من تحت المنضدة تعلو وتنخفض بسرعة لا ينقطع تزايدها . انه سيفقد وعيه ، وهذا ما توقعته .

وحينما وصلنا للحركة الثانية وبدات فترة التريث وقع حادث جديد ، كان السيد « ب » قد صبر من قبل لفترات التريث بضيق متزايد ، فاذا به هذه المرة يفقد سيطرته على نفسه واخذ يميل الى الوراء والى الامام وينقر بسبابته على المنضدة ..

رفع اليه زينتوفيك رأسه الثقيل وقال :

ـ أرجوك ، من فضلك لا تنقر على المنضدة بسبابتك فان هذا يزعجنى ، اننى لا أستطيع اللعب اذا سمعت ضجة .

ضحك السيد (ب) ضحكة خاطفة وقال :

ـ ها ، ها ، هذا ما أتبينه .

احمر وجه زينتوفيك وأجاب بصوت قاس شرس :

ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟

فعاد السيد (ب) يضحك من جديد ضحكة جافة شريرة وقال :

ـ لا أعنى شيئا ، كل ما فى الأمر ان اعصابك هائجة .

احنى زينتوفيك رأسه وصمت ، وصبر سبع دقائق قبل ان يلعب حركته التالية وسار الدور بعد ذلك على البطء المميت ، وزاد جمود زينتوفيك حتى بلغ درجة التحجر ، وتوالى ازدياد غرابة مسلك غريمة ، وبدأ عليه كانما نسى اللعب وشغل نفسه بشيء آخر كان قد كف عن ذرع الحجرة ذهابا وايابا واستقر على مقعده لايتحرك ، ينظر الى الفضاء أمامه نظرة شاخصة شاحبة ، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة .. هل هو مستغرق فى التفكير فى وضع خطط للعبة لا نهاية لها ؟ أم هل بدأ يلعب دورا جديدا فى ذهنه كما ظننت ؟

وأصبح لا مفر لنا من تنبيهه اذا جاء دوره فى اللعب ، فلا يقتضيه تدبر حركته الا دقيقة واحدة ، ومع ذلك زاد يقينى بانه نسينا جميعا — نسينا نحن وزينتوفيك ايضا ، وانه اصبح فريسة لنوبة من الجنون البارد نتوقع لها أن تنفجر بين لحظة وأخرى .

وقد حدث هذا فعلا عند الحركة الرابعة عشرة ، اذ لم يكد زينتوفيك يفرغ من حركته حتى قدم السيد (ب) قطعة الفيل صفوف ثلاثة دون أن ينظر الى الرقعة وصرخ صرخة افزعتنا :

— كش الملك . مات الملك .

انكفأنا على الرقعة نحاول ان نفهم كيف انتصر ، ولكن حدث بعد لحظة حادث لم يكن احدمنا يتوقعه .

رفع زينتوفيك رأسه شيئا فشيئا فى بطء شديد وجال ببصره علينا وكان لم يسبق له ان فعل ذلك ، ورأينا على شفتيه ابتسامة ملؤها الهزء والرضى كأنما يشعر بسرور لاحد له ، ولما فرغ من تذوق لذة استعلائه الظافر الذى لا نفهم سببه قال للزمرة كلها بأدب مصطنع :

— آسف أيها السادة . انني لا أرى الملك قدمات . فهل لأحد منكم أن ينفضل ويشرح لى كيف مات ؟

تأملنا الرقعة ثم تحولت نظراتنا القلقة الى السيد (ب) — ذلك لأن ملك زينتوفيك كان فى حمى بيدق — حماية لا يشق على طفل ان يراها ، اذن لم يمت الملك . فهل اخطأ صاحبنا فى وضع احدى قطعة ؟

اعاده الصمت المطبق من حوله الى وعيه ، ففحص بدوره الرقعة واخذ يفافىء بعنف :

— ولكن الملك ينبغى أن يكون فى المربع ف ٧ ، انه لبس فى مكانه ، ليس فى مكانه قطعا ، انه لبس فى مكانه، ليس فى مكانه قطعا ، انت اخطأت اللعب ، وكل ما على الرقعة خطأ ، فهذا البيدق ينبغى أن يكون فى مربع حـ ٥ لا جـ ٤ ، ليس هذا هو الدور الذى نلعبه .. انه .

ثم سكت بغتة ، كنت أمسكت بذراعة بل قرصته بشدة قرصة أحس وقعها رغم غيبوبته وضلاله ، فالتفت ونظر الى بعينى رجل يمشى فى نومه :

— ماذا جرى ؟ ماذا تريد ؟

فلم أفعل الا أن همست له : تذكر ، ولمست باصبعى أثر الجروح فى يده ، فتابع حركتى — بنظرة خامدة شاخصة ، ونظر الى أثر الجرح وقد نطق احمراره رعشة تهز جسده وتمتم بشفتين شاحبتين .

— بحق الله ، قل لى ، هل فعلت شيئا مريبا .. هل انا من جديد ..

فقلت له بهدوء : كلا . ولكن كف فورا عن اللعب . قد آن أوان انصرافك عنه ، وأذكر تحذير الطبيب .

فنهض من فوره وانحنى امام زينتوفيك بأدبه المعهود من قبل وقال :

— ارجو الصفح عن خطئى ، كان قولى «كش الملك» حماقة منى ، هـذا واضـح ، انك انت الذى كسبت الدور وانتصرت .

ثم التفت الينا وقال :

— وكذلك التمس منكم أيضا الصفح عنى ، الم أحذركم من الغلو فى الثقة بمقدرتى — معذرة لوقوع هذا الحادث السخيف — انها آخر مرة فى حياتى أحاول أن العب فيها الشطرنج .

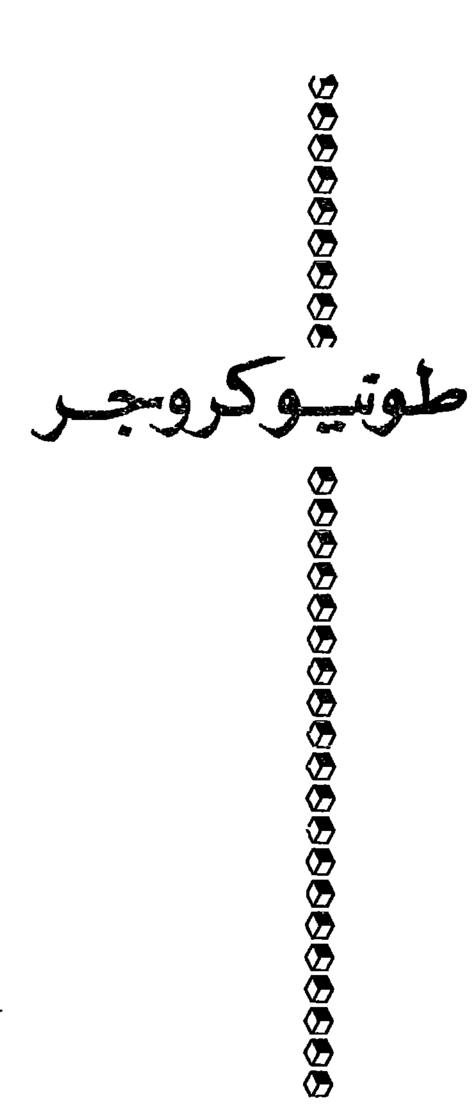
وانحنى أمامنا ثانية وانصرف كما قدم علينا من قبل بحركة يلفها التجمل والغموض ، وكنت أنا وحدى من بينهم مدركا لـماذا لن يلمس هذا الرجل من بعد رقعة الشطرنج ، أما بقية الزمرة فقد مكثت يخامرها شعور بانها قد نجت من خطر مجهول .

وزمجر ماك كنور قائلا وقد خاب أمله :

— ياله من غر أحمق .

وكان زبنتوفيك آخر الجميع فى مغادرة مقاعدنا ، ثم من قبل أن ينصرف القى نظرة أخرى الى الدور الذى بدأ ولم يتم وقال بلهجة السمح الكريم المفضال :

— خسارة . لم يكن اللعب ردبئا حتى ينتهى هكذا ، ان لصاحبكم رغم أنه من الهواة — موهبة مدهشة ..



طوتيـوكروجـر



مقـــدمة

توماس مان على سمو مكانته ـ جائزة نوبل ـ يستحق منا قدرا أكبر من الانصاف ، مبلغ علمى أن أعماله الكبرى لم تترجم بعد ، وان كانت فلا تعقيب عليها أو ذكر لها فى دراسات نقدية مستفيضة ، (أسرة بودنبروك ـ ١٩٢٤ ، الجبل السحرى ـ ١٩٢٧ ـ يوسف (١٩٣٤ ـ ١٩٤٥) الدكتور فاوست ١٩٤٩) له الى جانب هــذه الروايات الطويلة روايات قصيرة ذاعت شهرتها مثل طونيو كروجر (١٩٠٣) تريستان (١٩٠٢) الموت فى البندقية (١٩١١) ، وها أنذا قد أخذت على عاتقى ان انرجم لك طونيو كروجــر عن الانجليزية والفرنسية معا ، وأود أن انبهك بادىء ذى بدء ، أنك لن تجد فى هذه الأقصوصة هذا الذى اصطلحنا على تسميته بالحدوتة ، وقد يصفها بعض النقـــاد المحدثين عندنا بأنها أقرب الى المقال منها الى القصة ، كما حكموا على اعمال أخرى مماثلة فى أدبنا المعاصر ، ونفى صفة القصة عن طونيو كروجر لم يقل به ولا ناقد واحد فى الغرب . هىاعترافات تدور كلها حول صراعات عديدة محتدمة فى ضمير البطل ، والحب ليس فيه عناق ولا حتى لقاء بل نظر من بعيد ، والحوار يكاد يكون معدوما ، الأفكار اجترار دائم ، مما أوقعها فى شرك التكرار ، عمادها التحليل والوصف ، وسيروعك أنك لن تجد فيها اسما لحى أو جماد الا تبعته صفة ، وصفتان ، وربما ثلاث، وفى بعض الأحوال أربع وخمس، طبعا بقصد التحديد وحملك على الشعور بالالتحـــام

بالوجود بعد اكتشافه ، كأن الوصف وصف أعمى يلمس الأشياء بأصابعه وهو يقلبها على كل وجه وجانب حتى يستوعبها ادراكه ، تتابع الصفات هو تتابع اللمسات ، وقد يغتفر للاديب أنفته من أن يساير هوى قرائه الى السهولة ولكن يحسن به ألا يتسلى بامتحان صبرهم امتحانا عسيرا ، ولا يكره القارىء أن يلتمس المؤلف ما شاء له من التسلية ولكن ليس على حسابه ، اذا تحدثت فى قصة عن فقراء فلا بأس أن تصف مائدتهم بأنها من خشب أبيض ، واذا دفع توماس مان ذراعك أضفت — وسطحها مقشور ، واذا دفعك مرة أخرى كتبت — ورجلها مكسورة ... أما حين لا يزيد دور رجل غريب يقابلك فى القصة عرضا ولمرة واحدة لاتكرر، وليس له اقل تأثير عليك ولا على مسار القصة ، وانما شاء القدر أن يجلس بجانبك على مائدة الطعام فما الداعى لأن تصفه لنا بأنه بدين ، مصاب بالربو ، يسد منخرا له بسبابته لينفخ أنفاسه بقوة من منخره الآخر ليسلكه من زكام ، ثم تصف لنا ملبسه وصوته ونطقه .. اذا لحظت هذه المبالغة فى اشتراط الصفة وتتابعها تبدد من فورك لذة مشاركتك للمؤلف فى اكتشاف الوجود — ولا ميلك الى الالتحام ، ولك بعد ذلك أن تبتسم لهذا الهوس اللذيذ .

عجيب أمرى ، أبدأ لا بمدح الأقصوصة ، بل بفضح نزواتها ، ولكنى أريد أن أبرىء ذمتى منك ثم اخلى من بعد بينك وبينها للتمتع بالتغلغل الى أعمق الأعماق حيث تدور صراعات عجيبة فى نفس انسان أصابته لوثة الفن. ان عماد هذه الأقصوصة هو الفن والفنان .

هل يتحدث توماس مان عن نفسه فى هذه الأقصوصة على لسان بطلها ، فمولد الاثنين فى مدينة تقع فى شمال

ألمانيا على بحر البلطيق (اسمها لوبيك — وان لم يذكرها صراحة فى الأقصوصة) وأب الاثنين تاجر حبوب ، له منصب رسمى فى بلدته ، فهو ينتمى الى الطبقة البورجوازية ، انه رجل جاد بارد الأعصاب متفكر يحكمه المنطق لا الخيال ، وأم الاثنين امرأة جميلة ، مولدها فى بلاد قصية فى الجنوب يسرقها الخيال من المنطق ، وتحب الموسيقى واللذة الحسبة ، متقدة العواطف ، تكره الغم ، اذا حط عليها نشته نش الذباب . فالأب والأم من طرازين بينهما تناقض الأضداد ، جنسا وخلقة وطبعا .

فهل هذه الأقصوصة سيرة ذاتية ؟ ينبغى الا يشغلنا هذا السؤال كثيرا ، فليس هذا هو المهم فيها ، المهم فيها هو موضوعها ، ينبغى أن يستقل للحكم عليه لقيمته الذاتية ، وأنت نعلم أن لا فن ينقل عن الواقع بأمانة ، لابد من الخيانة ، الأمانة الوحيدة المقبولة هى أمانة الفنان للصدق الفنى ، وهو شىء مختلف أشد الاختلاف عن الصدق الأخلاقى .

وهذا التناقض بين الأب والأم فى القصة كان خليقا بأن يؤذن بسلالة تشذ عن الأصلين وبقية السلالات اما رقيا أو انحطاطا ، هذا هو الصراع . عاناه الابن طونيو كروجر حين أنس فى نفسه ميلا الى الفن ، فهو يتمزق بين أعراف البورجوازية — أرثا عن أبيه — وبين شطحات البوهيمية واللذة الحسية ، ارثا عن أمه ، هل يكون الفنان فى نظره مساويا لبقية الناس ، أم أن قدره المحتوم ، أو قل لعنته المحتومة — تجعله شاذا عنهم ، هم لهم ضمير مستريح ، واندماج فى ركب البشر ، أما هو فتعذبه دواما عقدة الذنب ، ولا يجد له مكانا فى هذا الوجود يستريح له . هل الفنان جنس من

المخلوقات لا تسرى عليه الأحكام التى يخضع لها الناس.
وقد غالى طونيو فى تصويره لشذوذ الفنان حتى كاد يشترط له هذا الشذوذ فى طبائعه ، بل فى خلقته وصحته، كما غالى فى تصوير التناقض بين أبيه وأمه ، ففى تقديره أن شمال جبال الألب فى المانيا محرومة من بلد مثل فلورنسا فى جنوبها ، تدخلها فتحسب أنك تدخل متحفا ، فى فلورنسا ارث حضارة اغريقية رومانية ، فى شمال الألب فى المانيا بصمات غزو بربرى ، فالناس فى الشمال حيث ولد طونيو وله ملامح وطبائع أمه بنت الجنوب ـــ لهم نظرة عملية تنبعث من عيون زرق تحت شعر أشقر ، يقول طونيو أن الفنان يظل غريبا بينهم ، انه يحلم ببلاد الجنوب ، وان كان أعجابه كله لأهل الشمال ، فاذا وصف ايطاليا قال ان سهولة الحياة فيها تبلغ حد الكسل ، وحلاوة العيش فيها ممجوجة لأنها لزجة كالعسل .
فى طونيو كروجر حشد لآراء كثيرة عن الفن والفنان ، ستجد امتدادها فى أقصوصة (الموت فى البندقية) فالموضوع يكاد يكون واحدا فى الاثنين : صراعات الفنان، انتصاراته وهزائمه ، لا فى الحياة بل فى باطن روحه ، آراء مهما كانت قيمتها تهم كل المشتغلين بالفن ، ولعلها بالنسبة لغيرهم فتح لباب عالم جديد عجيب ، فماذا عليهم لو ولجوه ، وقد قرأتها بمتعة لا تخلو من ابتسام وحسرة ، أحسست بأن هذه الآراء قد عفى عليها الزمن ، واستعبرت بأسى اذ لا شىء يدوم ولكن الألبوم الذى نحمله فى أيدينا بحرص شديد لا نستطيع أن نمزق صفحاته الأولى ، لابد أن نتأملها ونحن نطويها، فما أبعد الصورة التى رسمها توماس مان فى شبابه للفنان الممزق بين البورجوازية والبوهيمية ، بين انتمائه

للمجتمع وشذوذه عنه ، منغلق على نفسه ، المفرط فى تأنقه ، الغافل عن أنه تفسخ هو وأدبه .

ما أبعد صورة هذا الفنان عن صورته فى الوقت الحاضر ، لم يعد يعيش فى قوقعته ، أو على قمة الجبل ، بل همومه هى هموم جماعية على مسرحه القومي ، بل والعالمى .. انه ليس موهبة فحسب بل موهبة ودرس والتزام .

الفصل الأول

كانت شمس الشتاء المختبئة وراء كسف من السحاب تسدل على المدينة المحشورة داخل أسوارها الا علالة باهتة من ضوء ضئيل شاحب ، الشوارع ـ تحف بها على الجنبين منازل ذات قمم مثلثة الأضلاع ـ بللتها الأمطار ، والان تصفر فيها الرياح وبين الحين والحين يساقط نوع من البرد الهش وسط ، لا هو ثلج فى تجمد ، ولا هو ثلج فى ندف .

انتهت آخر حصة فى المدرسة ، وأخذ سيل من الصبيان ـ ردت اليهم حريتهم ـ يتدفقون فى قرارهم يمنة ويسرة للتلامذ الكبار حمل لرزم كتبهم بخيلاء ، فهم يرفعونها ويسندونها الى الكتف اليسرى ، ويدفعون الذراع اليمنى فى حركة المجذاف لمغالبة الرياح وشق طريقهم الى وجبة الغداء . أما الصغار فسيرهم كخبب الخيل ، يجعل الثلج المذاب يتطاير تحت أقدامهم من كل جانب ، ويجعل أدوات الهندسة تصطك داخل حقائبهم المصنوعة من جلد الفقمة ، ولكن الكبار والصغار على السواء يرفعون بين الحين والآخر الكاسكيت عن الرأس بخشوع وأدب ، تحية لأساتذة ، فيهم الملتحى ، وفيهم اللابس قبعة عالية ، وهم يبتعدون بخطى وقورة .

ـ ما الذى شغلك عنى يا هانز ؟

هكذا هتف طونيو كروجر بعد أن طال وقوفه منتظرا

فوق الرصيف ، وتقدم مبتسما الى صديقه وهو يخرج من الباب فى صحبة رفاق آخرين ويهم بالانصراف معهم. نظر اليه صديقه وأجابه :

ـــ لمـــاذا سؤالك ، آه ، تذكرت الان ، تعنى اتفاقنا السابق على القيام معا بجولة أخرى .

لزم طونيو الصمت وغامت عيناه ، هل نسى هـــانز اذن فلا يذكر الا الان ، أنهما على موعد للقيام معا بهذه الجولة ظهر اليوم ، فى حين أنه ظل يذكرها باغتباط منذ أن اتفقنا عليها ، وقال هانز لرفاقه مودعا لهم :

ـــ سأصحب كروجر فى جولة مرة أخرى .

وسار الاثنان الى اليســار ، بينما اتجه الآخرون فى تسكع الى اليمين ، أمام هانز وطونيو متسع من الوقت للتنزه بعد الانصراف من المدرسة ، فكلاهما من أسرة لا تتناول طعام الغداء الا فى الساعة الرابعة بعد الظهر وهما من أبوين من كبار التجـــار ويشغلان مناصب رسمية ، ولهما نفوذ كبير ومقام بين الناس ، فأسرة هانز تملك منذ أجيال مصانع فسيحة لبناء السفن قائمة على ضفة النهر ، حيث تعمل المناشير الآلية القوية ، وهى تلهث وتبصق فى شق جذوع الأشجار .

أما طونيو فهو ابن القنصل كروجر (القنصل عضو مجلس محلى منتخب) الذى ترى الناس كل يوم اسم متجره مكتوبا بأحرف سود غلاظ على أكياس الحبوب فوق عربات النقل ، ودار أسرته المتوارثة عن الجدود اجمل دور المدينة .

لم ينقطع الصديقان فى سيرهما عن رفع غطاء الرأس تحية لأناس من معارفهما ، بل ان من بين هؤلاء من كان هو البادىء بتحية هذين الصبيين ، لم يتجاوز عمر أحدهما الرابعة عشرة ، كلاهما يحمل مخلاة الكتب

على ظهره ويرتدى ملابس حسنة ينعم فيها بالدفء .
لهانز سترة كسترة التجارة ، زرقاء قصيرة ، تنحدر ياقتها العريضة فتغطى كتفيه وظهره ، ولطونيو معطف رمادى له حزام ، على رأس هانز قلنسوة تحسبها لبحار دانمركى ، تتدلى من حافتها شرائط قصار ، تنفلت من بينها خصلة من شعر أشقر فى لون أعواد الكتان عند الحصاد ، انه صبى ما أبهى ملاحة وجهة ورشاقة نامته ، كتفاه عريضتان وعيناه فى زرقة نصل من الفولاذ لهما نظرة رحيبة طليقة . أما طونيو فيلبس قلنسوة مستديرة من الفرو ، وجهه أسمر وملامحه دقيقة شأن أهل الجنوب ، عيناه داكنتان كأنما تغشاهما ظـلال رقيقة ، جفناه جد ثقيلين ، نظرته توحى بالأحلام وبعض التردد ، تحسب أن قلما مرهفا هو الذى رسم فمه وذقنه ، خطوته متراخية ولا تثبت على وثيرة واحدة ، أما هانز فيمشى نشيطا على قدمين عفيتين يسترهما من داخل الحذاء جورب أسود فكأنما يوقع بخطوه الرشيق لحنا منغما .

ولزم طونيو الصمت ، انه يتألم ، يقطب حاجبيه المقوسين قليلا ويكور شفتيه ليتمكن من الصفير وهو ينظر من جنب الى بعيد ، مائلا برأسه ، حتى أصبح من طبعه المميز له التزام هذا الوضع وهذا التعبير الذى تنطق به ملامحه .

ودس هانز فجأة ذراعه تحت ذراع طونيو ، ونظر اليه خلسة ، لأنه يفهم حق الفهم شجون صديقه ، فما لبث طونيو بعد أن سارا معا بضع خطوات دون أن يتكلم أن شعر بحنان دافق يغمره ، وقال هانز وهو يخفض بصره الى الرصيف :

— صدقنى ، اننى لم انس ، ولكنى ظننت من الأحوط

الا نقوم بهذه النزهة لأن الجو رطب وسيىء ، ولكنى لا ابالى بهذا كله ، وكان جميلا منك انك مع ذلك قد انتظرتنى ، فقد ظننت أنك انطلقت الى الدار وكان ذلك مما غمنى .

اهتز كيان طونيو كله بالطرب والغبطة وهو يسمع هذا الكلام ، وأجاب بصوت يغلبه التأثر :

— فلنذهب اذن الى أسوار المدينة ثم أرافقك الى دارك ، لا تعارضنى ، فلا يضيرنى أن أعود وحدى الى دارى ، وفى المرة القادمة تصحبنى أنت اليها . ثم تكون أنت الذى يعود وحده لداره .

انه لا يؤمن كل الايمان بعذر صديقه ، وأحس بوضوح أن هانز أقل منه شغفا بهذه النزهة التى يخلو فيها أحدهما للاخر فلا دخيل بينهما ، ولكنه تبين أن صديقه آسف حقا على نسيانه وعده ، وأنه مهموم بأن ينال الصفح وأن أبعد شىء عن خاطره أن يؤخر لحظة هذا الصفح .

ذلك أن طونيو كان يميل بقلبه الى هانز ، ولطالما أضناه على يدبه العذاب ، فالذى هو بين الاثنين أشد ضعفا يكون هو الأشد هياما والأشد اذن عذابا ، ان ادراكه لهذه الحقيقة هو درس له ، ان فؤاد طونيو وهو ما يزال غضا فى مقتبل ربيعه قد لقنته الحياة عبرة هذا الدرس الواضح القاسى ، من طبعه — هكذا خلقه الله — أن يتنبه كل الانتباه ويدرك أتم ادراك مثل هذه العبر ، وأن يسجلها فى دخيلة نفسه واجدا فى ذلك شيئا من المتعة ، ولكن دون أن يجعل مسلكه يتأثر بها أو يستغلها لصالحه ونفعه ، وكان يجد كذلك ان خبرته بهذه العبر تفوق فى الخطر والمتعة كل علم يتجرعه فى المدرسة غصبا ، وكان يصرف معظم ساعات الدروس

تحت قبو « فصل » مبنى على الطراز القوطى ، يتأمل مبلغ تأثر نفسه بهذه العبر التى ينتبه اليها ويلح فى تقصى كل ما توحى به من معان ، وكان انشغاله بهذه الأمور يمنحه رضا يماثل ذلك الرضا الذى يشعر به وهو يتجول فى حجرة نومه يمارس العزف على الكمان بألحان يرقتها ما استطاع لكى يخالطها بخرير نافورة فى حديقة داره ومياهها تثب وهى تتراقص على فروع شجرة الجوز العتيقة .

النافورة المتوثبة شجرة الجوز العتيقة ، الكمان ، رؤية البحر من بعيد ، بحر البلطيق يترقب أمامه حين يقضى أجازته أن تداعبه أحلام الصيف — هــذه هى الأشياء التى يهيم بها ويحب أن يعيش فى صحبتها وتتلون بها خوالجه ، أشياء تقع أسماؤها أجمل وقع فى الشعر ويتردد صداها كالنقر على الطبل فى القصــائد التى يسطرها أحيانا ، الذنب ذنبه هو اذا كان لم يصن سر احتفاظه بكراسة يسجل فيها شعره فافتضح أمره عند أقرانه وكذلك عند أساتذته ، ولكن طونيو بن القنصل كروجر لا يساوى نفســـه بالحمقى والسوقة فيقلق لافتضاح سره ، انه يحتقر رأى أقرانه ورأى أساتذته على السواء .

أساتذته رجال أجلاف يتقزز منهم وتكشف بصيرته الشفافة النفاذة ما تنطوى عليه نفوسهم من علل ، بيد أنه آمن هو نفسه أن قرض الشعر ادعاء لا يليق به ، ورضخ نوعا ما لرأى الذين يرون أن صرف الوقت فى نظم الشعر نشاز وانحراف ، ولكن رضوخه هذا لم يبلغ من القوة الى الحد الذى يمنعه من المضى فى هوايته .

واذا كان طونيو يضيع وقته هدرا فى البيت فانه كذلك فى المدرسة لا يمنح الدروس الا ذهنا متسكعا شاردا

حتى ساء رأى أساتذته فيه ، تنطق كل التقارير التى يحملها الى الدار بخيبته ، وكان أبوه — وهو رجل بدين حسن الملبس يضع أبدا زهرة برية فى عروة سترته — يتلقى هـذه التقارير بغضب وغم شديدين ، أما أمه الجميلة كونسويلو ذات الاسم الموسيقى الغريب والشعر الفاحم والسحنة التى تتباين وسحنة بقية نساء المدينة ، فقد أتى بهما أبوه من أقصى الجنوب — فكانت تتلقى هذه التقارير دون أن تأبه لها أو تبالى بها .

يحب طونيو هذه الأم المتقدة العواطف ، الغامضة ، المنطوية على نفسها ، البارعة فى العزف على البيانو والمندولين ، ويريحه منها . انها لا تغتم أو تقلق للشكوك التى يثيرها تباين طبعه عن بقية رفاقه ، بيد أنه كان يفضل كثيرا غضب أبيه ، لأنه يراه أدعى للكرامة والوقار فهو لا يملك الا الاعتراف بأن أباه حين يزجره محق فى مسلكه هذا ، على حين يجد فى زوغان أمه من المتاعب وقلة مبالاتها بالهموم شيئا من الاستهانة والطيش ، يحدث نفسه أحيانا بأشياء تدور حول هذا المعنى ، أفلا يكفينى ابتلاء أن أكون كما أنا ، سارح الذهن ، مهموما بأشياء لا ينتبه لها غيرى ، وانني غير قادر ولا راغب فى تبديل طبعى ، ألم يكن من الأصلح لى أن أجد على الأقل من يقومنى ويعاقبنى عقابا شديدا بدلا من أن تغمض عنى العيون بين رنين القبلات والألحان ، اننا لسنا من الغجر الرحل ، بيوتهم عربات مطلية بلون أخضر ، بل نحن اناس أهل جد ووقار .. القنصل كروجر ، أسرة كروجر ..

وكان يحدث نفسه مرارا : لمذا خلقنى الله نشازا ، بينى وبين الناس اختلاف ، وبينى وبين أساتذتى جفوة ، أحس بين أقرانى أننى غريب عنهم ، ها هم تلاميذ

المدرسة ، سواء فيهم من يحظى بالثناء عليه ، أو من يستنيم مرتاحا فى قبضة الهوان ، ما لهم لا يرون مثلى ما فى نفوس أساتذتهم من عوج يثير الضحك والرثاء معا ، ما لهم لا ينظمون الأشعار ، أفكارهم أفكار سواد الناس ، لا يمتنع الجهر بها ، ما أعذب اطمئنان أفئدتهم حين يخالطون الناس فيجدون أنفسهم مع كل فرد منهم على وفاق أما انا . . . ما الذى دهانى ، ماهى علتى ، وما هو مآلى ومصيرى . .

وهذا الدأب من طونيو على تأمل دخيلة نفسه وهذا التفحص المديد منه لما عساه أن تكون روابطه بالحياة ــ كل ذلك له شأن كبير فى تعلقه برفيقه هانز هانسن ، انه متعلق به ، ولا لأنه وسيم ، ولأنه فوق ذلك رفيق مرح يهوى ركوب الخيل والألعاب الرياضية ، يعوم كأبطال السباحة ويحظى باعجاب الناس ورضائهم ، يكن له أساتذته ودا من قلوب لا تملك لانجذابها بسحره الا أن ترق له وتحنو عليه ، ينادونه من قبيل الاعزاز باسمه الأول مجردا عن اللقب ويوالونه بالتشجيع بشتى السبل ، يسعى رفقاؤه لاكتساب مودته ، ويستوقفه الرجال والنساء فى الطريق ويلمسون خصلة شعره الأشقر المنفلتة من قلنسوته وهى فى لون أعواد الكتان ويقولون : صباح الخير على عيونك يا هانز ما أبهى خصلة شعرك ، هل أنت دائما أول الفصل . سلم لنا على بابا وماما يا حبيبى يا قمر يا حلبوه .

هكذا هانز هانسن وطونيو مذ عرفه يضنيه حين يلمحه مطمح يخالطه حسد يحس بلهيبه فى صدره ، ويقول فى سره : لو كانت لى عينان زرقاوان كعينيك ، ليت لى أن أعيش مثلك فى وفاق وانسجام مع العالم كله ، انك تنفق كل وقتك بحصافة وتعقل ويحترمك

جميع الناس ، اذا فرغت من أداء واجباتك المدرسية ذهبت للتدرب على ركوب الخيل أو شغلت نفسك بنشر الأشجار ، وحتى فى اجازتك على شاطىء البحر تكرس وقتك للسباحة أو اللهو بركوب الزوارق ، بالمجداف أو بالشراع ، على حين أظل أنا راقدا على الرمل ، كسولا عاطلا ، مستغرقا فى أحلامى ، أثبت نظرتى لكى أرقب كيف نمسح يد خفية على وجه البحر فتتعاقب عليه ملامح متباينه ، حق لك أن نكون عيناك فى صفاء زرقته ، ليتنى كنت مثلك .

ولم يحاول طونيو أن يقلد هانز هانسن ، ولعله لم يأخذ مأخذ الجد تشوفه للشبه به ، وان نملكته رغبة ممضة فى أن يظفر وهو كما هو لا يتغير ، بانعطاف هانز نحوه ، ان طونيو يسعى لاكتساب وده ، على طريقته هو ، طريقة يلتزمها طبع متئد ، عميق الجذور ، يسرف فى انكار الذات وتشرب الألم والكآبة ، ولكنها كآبة أشد لسعا له وافتراسا من العواطف الجامحة المتوقعة من قلب فتى له مثل هيئته الغريبة وطبعه الفريد .

ولم يذهب تودده لزميله سدى ، فان هانز أصبح واثقا أن طونيو أعلى مرتبة منه وأكثر قدرة بفضل طلاقة لسانه على التعبير بسهولة عن المعانى العويصة ، وأدرك حق الادراك أن الود الذى يتلقاه ويحمده من صديقه قد بلغ من القوة والصفاء ذروة غير مألوفة ، وسر طونيو أن بادله هانز ودا بود ، ولكنه سرور يخالطه عذاب مبعثه الغيرة وخيبة الأمل وعقم كل جهد يبذل فى الارتباط معا برباط روحى ، اذ من العجيب أن طونيو وهو يحسد صفات صديقه لا ينفك يجاهد لحمل هانز

على أن ينطبع بطبعه هو ويصبح على شاكلته ، انه جهاد لا ينجح الا فى لحظات عابرة ثم يجد أن هذا النجاح ان هو الا السراب بعينه .

وسار الزميلان ، تتبادل أيديهما على قرطاس به حلوى اشترياها من بقال فى شارع الطاحون ، وقال طونيو :

ــ اسمع ، فرغت من قراءة كتاب جديد بالاعجاب ، كتاب بديع ، ينبغى لك أن تقرأه ، يا هانز ، انه مسرحية (دون كارلوس) من تأليف شيللر . ان شئت أعرته لك ..

اجابه هانز :

ــ لا .. لا .. دعنى منه ، يا طونى ، مثل هذا الكتاب لا يشوقنى . اننى أفضل ما لدى من كتب مؤلفة عن الخيل ، أؤكد لك أنها تضم صورا بديعة سأطلعك عليها حين تأتى لزيارتى ، صور رسمت خطفا للخيل وهى تجرى ، فيها تثبيت لهيئة عدوها وخببها وقفزها ، أوضاع مختلفة لا تلحظها العين لأن الخيل تمرق أمامها بسرعة . أجابه طونيو مجاملا له :

ــ كل الأوضاع ؟ يا له من شىء بديع ولكن لنعد الى دون كارلوس ، انها مسرحية تفوق كل خيال ، سترى فيها كلاما يبلغ من جماله أن يزلزل قلبك ويرجه رجا ، كأنما فاجأك شىء ينفجر .

أجاب هانز :

ــ شىء ينفجر ، ماذا تعنى ؟

ــ خذ مثلا حين تصف المسرحية كيف أجهش الملك بالبكاء حين علم أن الماركيز قد خانه ، ولكن الماركيز لم يخنه الا بسبب حبه للامير ، فرضى أن يفتدى هذا الأمير بنفسه . أتفهم ؟ وعلا من داخل خلوة الملك صوت نحيبه

حتى سمعه رجال الحاشية من وراء الأبواب وأخذوا يتهامسون : انه يبكى ، الملك يبكى ، أسقط فى يدهم وتملكهم الهلع ، فالملك معروف بصلابته وقسوته الفظيعة ولكن لا عجب ان بكى الملك . اننى أرثى له أكثر مما أرثى للامير والماركيز معا ، فقد كان دائما يعانى عذاب الوحدة والحرمان من الحب ، فلما ظن أنه وجد انسانا يستطيع أن يتعلق به اذا بهذا الانسان يغدر به ويخونه.

نظر هانز خلسة الى وجه صديقه فوجـده ينطق بأحاسيس أثارت اهتمامه بمسرحية شيللر ، فاذا به يضع ذراعه فى ذراع طونيو ويقول له :

— وكيف خان هذا الرجل يا طونيو ؟

وبدأ طونيو يشرح له مستعينا بحركات من يديه أيضا كيف كانت الخيانة ، فاذا بهانز يصيح فجأة :

— ها هو ذا ايروين ايمرتال .

فصمت طونيو ، فليذهب الى الجحيم ويغور فىداهية ايروين هذا ، من اين طلع علينا لبزعجنا ، عسى الا ينضم الينا فيصدع رأسنا طول الطريق بحديثه عن ركوب الخيل .

ذلك أن ابروين يتلقى هو أيضا دروسا فى ركوب الخيل ، هو ابن مدير المصرف ويسكن حيث لقناه خارج المدينة ، وكان قد تخفف من مخلاته وأقبل عليهما بساقيه المقوستين وعينيه المشدودتين الى الصدغين ، حياه هانز وقال له :

— اننى أتمشى مع كروجر ، نتريض .

فأجابه ايروين :

— كنت فى طريقى الى المدينة لأمر كلفت به ، ولكنى سأصحبكما قليلا ، ماذا فى القرطاس ؟ حلوى من عصير الفاكهة ! حقا ! شكرا ، أحب أن أذوقها أيضا ، أسمع

يا هانز ، لا تنس موعد الدرس غدا (ها هو ذا يريد آن يتحدث عن ركوب الخيل !) وقال هانز :

— اننى فرح لأنهم سيعطوننى حذاء برقبة عالية لقاء تفوقى على زملائى فى التدريبات .

وقال ايمرتال وعيناه لا تزيدان عن شقين ضيقين يلمعان :

— وانت يا كروجر ، آلا تتلقى آيضا دروسا فى ركوب الخيل ..

— لا ..

نطق بها طونيو مغمغما لا يكاد يبين .

وقال هانز هانسن :

— ينبغى يا كروجر آن تطلب الى آبيك آن يلحقك بهذه الدروس .

— سأفعل .

حز فى قلبه لحظة آن هانز ناداه بلقب الأسرة لا باسمه الأول . كما كان يتمنى دلالة على رفع الكلفة ، وأحس هانز ولا ريب بشعور صديقه فقال له موضحا .

— ناديك بلقب كروجر لأن اسمك غريب شاذ كما تعلم أننى لا أحب هذا الاسم أبدا ، طونيو ، ليس هذا باسم ، والذنب فيه ليس ذنبك فلا حيلة لك فيه.

وقال ايمرتال وهو يتخذ سمة من يريد التوفيق بينهما :

— أظن أنهم أطلقوا عليك هذا الاسم لأن له جرسا غريبا وفريدا .

وسرت الرعشة فى شفتى طونبو ولكنه تمالك نفسه وقال :

— نعم ، انه اسم سخيف ، وكنت أفضل عليه

— صدقاني — اسما مثل هنرى أو غليوم ، ولـكنى سميت به تبعا لخال لى ، اسـمه أنطونيو ، اذ أن أمى كما تعلمان ليست من أهل هذه البلاد .

ثم لاذ بالصمت وترك زميليه يخوضان فى الحديث عن الخيل وركوبها ، وكان هانز قد وضع ذراعه تحت ذراع ايمرتال يحدثه باهتمام وحماس ، هيهات أن يلذ لهما حديث عن دون كارلوس ، وأحس طونيو بالدموع تدغدغ خياشيمه ، وبذل جهدا كبيرا للتحكم فى ذقنـه وهى لا تنفك عن الارتعاش .

ان هانز لا يحب فيه اسمه ، ما العمل ؟ حقـا ان اسم هانز وأسم ايروين شائعان لا يثيران الانتبـاه والاستغراب ، أما طونيو فهذا اسم شاذ عجيب ، نعم ، ان طونيو يعلم أنه سواء أراد أم لم يرد ، مخلوق شاذ من جميع الوجوه ، يباين الطراز المألوف من أولاد الناس الطيبين ، مع أنه ليس من سلالة غجر رحل ، مسكنهم عربة خضراء ، انه ابن القنصل كروجر ، من أسرة عريقة ، ولكن لماذا يناديه هانز اذا انفردا معا باسم طونيو ثم يعدل عن ذلك حين ينضم اليهما ثالث، هل يخجل منه ؟ انه يمنح طونبو أحيانا اهتمامه ووده، ألم يضع منذ لحظة ذراعه فى ذراعه ويسأله (وكيف خانه هذا الرجل يا طونيو) ومع ذلك ما أن قدم عليهما ايمرتال حتى تنهد مرتاحا وتخلى عنه وتبرع بتجريح اسمه غير المألوف ، ما أشد الألم الذى يبعثه ادراك هذه الأشياء بوضوح ، يعلم أن هانز يميل اليـه بود حين ينفردان ؛ ولكن اذا قطع خلوتهما ثالث خجل منه وضحى به ، ، وارتد طونيو من جديد الى وحـدته ، يفكر فى الملك فيليب ، الملك الذى بكى .

وقال ايروين ايمرتال :

ــ ياه ، ينبغى أن انصرف فورا ، وداعا لـكما وشكرا على الحلوى .

وحرك ساقيه المقوستين وابتعــد جريا فوق حافة الطريق المرتفعة . وقال هانز بنغمة الوثوق :

ــ اننى أحب ايمرتال .

كانت له طبائع الصبى المـدلل الواثق بنفســه فى اعلانه لمـا يحب وما يكره ، كأنه تفضل منه أن يوزع الحظوظ .

ثم استطرد هانز يتكلم عن دروس ركوب الخيــل لأنه كان اندفع فى هذا الحديث . وكانا على كل حال قد اقتربا من منزل هانز ، ذلك أن طريق الأسوار ليس مفــرطا فى الطول ، أحكم الصبيان تثبيت قلنسوتيهما ومالا برأسهما يغالبان الرياح العاتية الرطبــة وهى تصلصل وتئن بين غصون الأشجار العارية ، وظــل هانز يتكلم وطونيو لا يرد عليه الا بجهد بأن يقول له بين الحين والحين (نعم) أو « حقا » لا يأبه أن وضع هانز فى حدة حديثه ذراعه فى ذراعه ، فلم يكن مايفعله سوى حركة يتذرع بها لاعلان رغبته فى مصالحته فهى لا تعنى عند طونيو شيئا .

وخلفا وراءهما طريق الأسوار غير بعيد من المحطة ورأى الاثنان قطارا يمر وهو يلهث وينتزع سرعتــه بعناء ، وأخذا من قبيل التسلية يعدان كم عربة تجرها القاطــرة ، ولوحا بأيديهمــا الى الرجل الجالس فى مؤخرة السبنسة وهو غارق فى معطف من الفرو .

ووقفا أمام دار هانز فى ميــدان الزيزفون ورغب هانز أن يــرى صديقه وسيلة حــديثة اكتشفها للهو والتسلية ، فتسلق الباب الحديدى وقام بتحريكه يمينا ويسارا حتى علا صريره . ثم ودع كل منهما صاحبه

وقال هانز :
ــ ينبغى أن أدخل الآن ، الى اللقاء يا طونيو ، فى المــرة القادمة سأكون أنا من يصحب الآخر الى داره ، أعدك بذلك . أجابه طونيو .
ــ الى اللقاء يا هانز ، نزهتنا كانت جميلة .
وشد كل منهما على يد زميله بيــد مبلله ، لطخها لون الصدأ من أثر عبثهما بالباب الحديدى ، ولــكن هانز حين التقت عيناه بعينى طونيو بدا كأن وجهــه تعلوه مسحة من الندم ، وقال :
ــ سأقرأ قريبا مسرحية (دون كارلوس) ان قصة الملك المنفرد فى خلوته لابد أن تكون شيقة .
ثم وضع حقيبته تحت ذراعه ومضى يشق الحــديقة جريا ، وقبل أن يختفى داخل الدار التفت ثانية الى طونيو ولوح له بيده .
وانصرف طونيو كروجر وهو يتألق بشرا ، يمشى فى خفة كأنه يطير بجناحين ، تدفعه الرياح الى الأمام، ولــكن ليس من دفعهــا وحده أن تتابعت خطــواته بسهولة .

ان هانز سيقرأ (دون كارلوس) وهكذا سيملكان شيئا لا يستطيع أيمرتال ولا أحــد غيره أن يشاركهما فى الحديث عنه ، ما اجمل هذا الوفاق بينهما ، ومن يدرى ، لعله يستطيع أن يحمــل هانز على أن ينظم الشعر مثله ، ولكن لا ، لا ، انه لا يريد بذل هــذه المحاولة ، ان هانز ينبغى الا يصبح توأما لطونيو ، بل ينبغى أن يبقى كما هو بصفاته كلها ، بفروسيته وفتوته ، محتفظا بخلائقه التى من أجلها تحبه الناس، ويحبه طونيو أكثر منهم ، ولا ضير على هانز أن يقرأ (دون كارلوس) .

ودخل طونيو المدينـــة من بوابة عتيقة واطئـــة فى عرض أسوارها الغليظة ، وسار بحذاء الميناء وبين المنازل ذوات القمم المثلثة الأضلاع يصعد بجهد علوة شوارع مبللة تصفر فيها الرياح حتى بلغ منزل أسرته .
ها هو ذا يشعر أن قلبه تدب فيه الحياة ويمتلىء بأمانى موجعة وتحسر مكتئب وقدر قليل من التعالى والاحتقار ، وفيض كبير من الطهر والعفاف .

الفصل الثانى

انجه انجبور هولم بنت الطبيب هولم القاطن فى ميدان السوق الذى تتوسطه نافورة مدببة مزخرفة وفق الطراز القوطى ــ كانت هذه الفتاة الشقراء هى التى احبها طونيو كروجر حين بلغ السادسة عشرة من عمره .

كيف حدث هذا ؟ أنه رآها ألف مرة دون أن تستأثر بالتفاته ، ولكنه شاهدها ذات مساء يجللها نوع من الاشراق ، تلفت راسها الى جنب وهى تتحدث الى صديقة لها وتضحك ضحكتها التى تنم عن النزق والدلال ، ولمحها نمد الى قذالها يدا هى يد الفتاة الغريرة لا هى جد جميلة ولا هى جد رشيقة ، على حين انحسر كمها الأبيض المهفهف وبان كوعها ، وسمعها تلفظ بلهجة التأكيد وبصوت منغم دافىء كلمة عابرة وسط حديثها فامتلأ قلبه من أجلها بفتنة تفوق فى عنفوانها ما كان يحس به من قبل وهو ما زال صبيا صغيرا حين كان يرنو الى هانز هانسن .

حمل لها ذلك المساء صورة انطبعت فى قلبه لضفيرة الشعر الأشقر الغليظة ، لعينين لوزيتين زرقاوين ضاحكتين ، لحدبة هينة لأنف يعلوه نمش خفيف ، وظل ليلته ساهرا لا يقدر على النوم لأن نغمة صوتهالاتفارق أذنه وحاول وهو واجف القلب أن يقلد همسا لهجتها وهى تؤكد تلك الكلمة العابرة فى حديثها لصاحبتها .

افبعد هذا العناء دليل على أن الذى يعهده فى نفسه هو الحب بعينه .

يعلم أن الحب لن يمنحه الا أحمالا من الضنى والعذاب والذل ، وأنه يحطم النفس ويملأ القلب بالأناشيد دون أن يترك له ما يحتاجه من الهدوء وراحة البال لكى يتأمل هذه الأناشيد حتى تتضح له عالمها وحتى يخلق منها فى ظل السكينة كيانا متكاملا مفهوما وقابلا للتعبير عنه بدقة ووضوح ، ومع ذلك تلقى الحب وهو جذل به واستسلم له كل الاستسلام، يغذيه بكل طاقة لروحه ، انه يحرص عليه وينعم به ، هو مدرك أن الحب سيضفى على حياته ثراء وتوهجا واتقادا وهذا هو ما يصبو اليه .

وهكذا وقع طونيو فى غرام انجه انجبور المرحة فى صالون السيدة هوستيد ، — زوجة القنصل — وكان خاليا من أثاثه لأن النوبة كانت عليها تلك الليلة فى استضافة دروس الرقص ، وهى دروس خاصة لا ينضم اليها الا أبناء أرقى الأسر يجتمعون فى منزل بعد آخر بالتناوب لتلقى هذه الدروس . وكان الأستاذ كناك — معلم الرقص — يأتى من هامبورج كل أسبوع مرة لتلقينهم هذه الدروس .

ان اسمه كاملا هو فرانسوا كناك ، ولكن حق معرفته أن تراه بشحمه ولحمه ، يواجه تلاميذه قائلا بلغة فرنسية سقيمة النطق :

— لى الشرف أن امتثل امامكم واسمحوا لى أن أعرفكم بنفسى ..

ثم يستطرد بالألمانية :

— النطق بهذه العبارة ليس وقته عند احناء الراس أمام من تتقدمون اليه بل فور رفعها بعد احنائها ويكون

نطقها بصوت متئد ولكن لابد أن تكون الألفاظ واضحة كل الوضوح ، ان إلتزامكم بتقديم أنفسكم باللغة الفرنسية لا يحدث كل يوم ولكن اذا أتيح لكم أن تفعلوا ذلك بلغة سليمة متقنة فاطمئنوا الى صواب تصرفكم كما لو كنتم تتكلمون بالالمانية .

يرتدى الأستاذ كناك (ردنجوت) من قماش أسود براق مفصل على جسمه البدين أحسن تفصيل ، ويهبط كل ساق فى سرواله فتنثنى له حافة متهدلة على حذائه المكشوف تزينه أنشوطة من حرير ، عيناه العسليتان تجولان فيما حوله يملأهما الاحساس بجمالهما سعادة واستكفاء يورث صاحبه الملل ، انه يسحق تلاميذه سحقا بفرط تأنقه وضبطه لحركته ووثوقه بنفسه ، فهو يتقدم بخطى متوثبة متموجة متزنة معا — خطى لا يألفها الا بلاط الملوك — ويتجه الى ربة الدار وينحنى أمامها ويصبر الى أن تمد له يدها فاذا فعلت تمتم بكلمة شكر وتراجع بخطوة رشيقة ودار الى جنب معتمدا على طرف من مشط قدمه اليسرى وابتعد وهو يهز وركيه ، من دروسه قوله لتلاميذه :

اذا شاء أحدكم الانصراف عن اجتماع فعليه أن يتراجع القهقرى نحو الباب ، وهو ينحنى مرارا ، واذا شاء تقريب مقعد اليه فينبغى الا يحمله من احدى قوائمه أو يجرجره على أرض الصالون ، بل يتناوله بخفة من مسنده ويضعه برفق حيثما يرغب ، وينبغى لأحدكم الا يجلس شابكا يديه على بطنه عاقدا لسانه كالحجر بين شدقيه .. وكان اذا حدث لك أن هفوت وفعلت ذلك فان الأستاذ كناك لا يتورع من الاسراع فورا الى تقليدك بسخرية تبعث فيك الخجل واستقباح فعلتك الى نهاية عمرك .

تلك هى دروس حسن السلوك أما عن الرقص فان الأستاذ تجلي له فيه براعة اتم ان جاز القول بأن فى براعته زيادة لمستزيد ، تتلألأ فى الصالون العريان اضواء الثريات وشموع المدفأة ، وعلى الأرض نثار من مسحوق التلك ، ويصطف التلاميذ وهم صامتون فى نصف دائرة ، وفى الحجرة المجاورة تجلس الأمهات والعمات والخالات على مقاعد مكسية بقطيفة ذات وبر ، يرقبن من خلال نظاراتهن المقربة كيف يقف الأستاذ كناك مائلا الى الأمام ممسكا من الجانبين طرف الردنجوت بأصبعين ، محركا ساقيه بحركات رقصة المازوركا أما اذا أراد أن يبهر الجميع فانه يثب فى الهواء فجأة وبلا داع هازا ساقيه ضاربا احداهما بالأخرى فى سرعة فائقة مؤديا بذلك حركة عسيرة من حركات الرقص ثم يسقط على الأرض فوق قدميه فى دوى مكتوم وان لم يبق فى الحجرة شىء الا ارتج واهتز ، يقول طونيو فى سره : ياله من العبان ، ياله من قرد ، ياله من مسخ لا مثيل له ، ولكنه يلمح انجه هولم المرحة وهى مستغرقة فى تتبع الأستاذ كناك بابتسامة تعلوها الاعجاب ، لم يكن من اجل هذا وحده ان أحس حقا باعجاب لما يبديه الأستاذ من تحكم رائع فى حركته ، بل هو مسحوق أيضا بنظرته الهادئة المطمئنة اذ أنها لا تتغلغل فتسبر غور الأشياء حتى يتجلى باطنها المعقد الباعث على الشجن ، لا علم لعينيه بشىء فى الوجود الا بأنهما عسليتان وجميلتان ، هذا هو سر خيلائه واعتداده بنفسه ، حقا انه من الحمق والصغار والهوان أن يمشى أحدنا مشيته ، ولكن الأستاذ مع ذلك محبوب لأن له فتنة طاغية ، ان طونيو يفهم انجه الشقراء الحلوة ويقدرها حين تنظر

الى الأستاذ كما تفعل ، أما هو ... هل سيتأتى له فى يوم أن ينظر الى فتاة مثل هذه النظرة .

نعم ، حدث له ذلك ، انها مجدلبنا فيرميهرن بنت المحامى فيرميهرن ، وهى فتاة وديعة لها عينان واسعتان سوداوان ، تنطقان بالصدق والجد وحب التعاطف ، انه يحدث لها كثيرا أن تتعثر قدمها وهى ترقص فتكاد تسقط على الأرض يراها حين يأتى دور الرقصة التى يؤذن فيها للفتاة أن تختار فتاها لا يقع اختيارها الا عليه ، هى تعلم أنه ينظم الشعر وقد طلبت اليه مرتين أن يطلعها على قصائده ، كم من مرة أمالت رأسها لتنظر اليه وهى واقفة على بعد منه، ولكن لا شيء من هذا يهمه ، أنه يحب انجه هولم ، انجه الشقراء ، انجه المرحة التى تستسخفه ولا ريب لأنه يقرض الشعر ، انه يتأملها ، يتأمل عينيها اللوزيتين الناطقتين بالغبطة والسعادة والتهكم ، يحرق قلبه ويعذبه فى الم قاس طموح وحسرة من أنه مطرود من محضرها ، تقضى عليه أن يعيش أبدا مجهولا منها .

وارتفع صوت الأستاذ كناك قائلا بنغمة هيهات لأحد أن يقلدها :

ـــ الزميلان الأولان ، الى الأمام !

لقد بدأ درس رقصة الرباعيات ، ما كان أشد جزع طونيو حين وجد نفسه فى رباعى واحد مع انجه هولم ، انه يتجنبها جهد طاقته ولكن الرقصة الزمته أن يبقى بجوارها طول الوقت ، يكبح عينيه عن التطلع اليها ومع ذلك فان نظراته لا تفارقها هاهى ذى الآن تتقدم ، يقودها شاب أحمر الشعر هو

فرناند ماتيسين تخطو فى خفة كأنها طيف وتسرع الى موقفها الذى تستعد عنده لبدء الرقص وهى تطوح ضفيرتيها الى الوراء ، ثم تقف وهى تسترد أنفاسها امامه هو وجها لوجه ، وبدأ ضارب البيانو هنزلمــان — وفرق بين الضرب والعزف ! — يضع يدين بارزتى العظام فوق أصابع البيانو ويلمسها ، وبدأت رقصة الرباعيات .

وأخذت انجه هولم وهى تواجهه تنثنى يمنة ويسرة، الى الأمام والى الخلف ، وتخطو وتدور ، يسطع عطر من شعرها أو من ثوبها الأبيض الرقيق ، يتشممه كلما دنت منه فلا يزيد امتلاء عينيه بها الا اضطرابا فوق اضطراب يحدث نفسه سرا : انجه ، ياحلوتى الغالية، انى أحبك ، يبث فى هذه الكلمات كل الله من أنهــا منصرفة الى الرقص بحمــاس وغبطة دون أن تلقى اليه بالا ، واستعادت ذاكرته قصيدة للشاعر ستورم يقول فيها (بودى أنا أن أخلد الى النوم ، أما أنت فحــلال لك الرقص) يتعذب طونيو لتلك الحمــاقة المزرية التى تقضى عليه بأن يمتهن حبه بشىء تافــه سخيف مثل الرقص .

وصاح الأستاذ كناك معلنا دورة جديدة للرقصة .

— الزميلان الأولان .. الى الأمام !

جاء دور طونيو وزميلته انجه ، أدى لها التحية بأن أحنى رأسه أمامها وهو متجهم ، ثم ارتبك حين لمست يده يدها ولم يحسن أداء الرقصة فقام بحركة ينبغى أن تؤديها فتاة لا فتى .

انطلقت الوشوشة والضحكات من حوله وصــاح الأستاذ كناك (أبطــلوا الرقص .. ! الى الــوراء

يا آنسة كروجر ويلى عليك ، لقد فهم الجميع الا أنت،
الى الوراء ، الى الوراء ، ثم أخرج من جيبه منديلا
أصفر وأخذ يهزه فى وجه طونيو كأنه بهش عليه لكى
يعود الى مكانه المرسوم له .

يا آنسة كروجر !. هكذا ناداه الأستاذ هزءا به ،
لم يبق أحد لم يضحك ، الفتيان والفتيات ، والسيدات
فى الحجرة المجاورة ، ذلك أن الأستاذ كناك قلب هذه
الهفوة الصغيرة الى مهزلة تضحك الثكلى ، وساد
الجميع جو من المرح كأنهم فى مسرح هزلى ، وكان
العازف هانزلمان هو وحده الذى بقى جامد الوجه
شأن الأجير الذى لا يعنيه الا أداء عمله والقيام بواجبه،
ولأنه أيضا ألف من الأستاذ كناك مثل هذه الغضبات
العارمة ، وظل ينتظر اشارة ليبدأ العزف من جديد.

وبدأت رقصة أخرى ، ثم تلتها فترة استراحة
ودخلت الخادمة تهتز فوق يديها وتصطك صفوف أقداح
ملأى بمشروبات مرطبة ، وتبعتها الطباخة مزودة
بالفطائر ، أما طونيو فقد انسحب خلسة من الصالون
واتجه الى الدهليز ووقف عاقدا يديه وراء ظهره أمام
نافذة مغلقة دون أن يقدر بأنه لن يرى شيئا من خلال
نافذة مغلقة وأنه من الحمق أن يظل هكذا واقفا أمامها
زاعما أنه يتأمل شيئا وراءها ، أن الذى يتأمله حقا
هو دخيلة نفسه ، وهى مفعمة بالغم والتحسر ..
لماذا ، لماذا سعت به قدمه الى هنا ، لماذا لم يبق
بحجرته بجوار النافذة يقرأ فى كتاب ويمد طرفه بين
آونة وأخرى الى الحديقة وقد جللها الظلام تنبعث من
خلاله شخشخة كثيفة لشجرة الجوز العتيقة ، أليس
هذا هو الأخلق به والأقرب الى طبعه ، حلال للآخرين
أن يرقصوا بكل حماس واندفاع دون أن تتعثر لهم

قدم أو تزل لهم خطوة ولكن لا .. لا .. ان مكانه هنا حيث يحس أنفاس انجه رغم أنه ينفرد بنفسه بعيدا عنها ، يحاول من خلال ضجة الأحاديث والضحكات واصطكاك الأكواب أن يلتقط صوتها الذى يتوهج فيه دفء الحياة ، انجه ، ما أجمل عينيك اللوزيتين الزرقاوين الضاحكتين ، انجه أيتها الفتاة الشقراء ، لكى يصبح انسان مثلك وسيما مليحا وضاح الجبين مرحا بسام الثغر ينبغى له الا يكون قلبه قد هصره الشجن وهو يهتز لروائع الشعر ، أن لا يمزقه عذاب الشعر بالعجز عن ابداع نظم هذه الروائع ، هذه هى نكبته .

كان ينبغى لها أن تلحق به ، أن تنتبه أنه فارق الجمع وتحس بلواعج قلبه ، أن تتبعه خلسة وتلحقه وتقف بجانبه وتضع يده على كتفه وتقول له، تعال ، عد الينا ، اطمئن ، اننى أحبك ، فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ يتسمع طونيو ما يدور وراءه ، ينتظر فى لهفة لا تسوغ لها أن تأتى اليه ، ولكنها لم تفعل ، ان هذه الأشياء لا تحدث فى هذه الدنيا ..

هل ضحكت منه هى أيضا كما ضحك الآخرون ، نعم ، انها ضحكت ، عن طيب خاطر ، وقلب منشرح، غير متحرجة ولا مستأنية ، ولكنه لا يصدق أنها ضحكت منه ، اعلاء لحبه لها وحفاظا على كبريائه ، ومع ذلك فانه لم يزل زلته الا لأنه لم يكن مالكا لتمام وعيه من فرط انبهاره بجمالها واشراقها ، وماذا جرى حتى ينفجر من الضحك ، ولماذا تصبح الحبة قبة ، صبرا : سيأتى اليوم الذى يكفون فيه عن الضحك الم تقبل احدى الصحف أخيرا قصيدة من نظمه ولم تردها اليه ، لا يطعن فى ذلك أن قصيدته لم تنشر لأن الصحيفة

توقفت عن الصدور سيأتى يوم تواتيه فبه الشهرة فننشر كل قصائده وتستيقظ له انجه هولم ، ولكن هيهات ، قد يحدث هذا لماجدلينا فيرميهرن النى تتعثر وتتهادى وهى ترقص ، ليس هذا شأن انجه هولم المرحة ذات العينين الزرقاوين .. اذن ما جدوى كده .. ؟

انقبض قلبه لهذا الخاطر وهصره الألم .

فمن أشد العذاب أن تحس فى نفسك قوى كريمة سخية متوثبة وهى معرقلة ومشلولة فى قبضةالاكتئاب وأنت تعلم فى الوقت ذاته أن الذين يسمو اليهم طموحك المتقد لا يقلقهم فى شىء تجاهلهم لك ، انه وان كان وحيدا مقضيا تحطم أمله غيرة وشعور بالضياع يتظاهر فى ألمه بأنه يتعالى عليها ويحتقرها ، الا أنه رغم ذلك سعيد ، اذ أن قلبه آنئذ تنتقد فيه الحياة ، قلبى يخفق بطرب واسى لك يا أنجه هولم ، ان هذه الفتاة الشقراء ، الصافية الطبع كجدول صغير رقراق، هذه الفتاة النزقة ، الخفيفة القدر ، مثلها عشرات ، هى النى تعانق روحه شخصها ، ويتنكر لنفسه من أجلها وهو راض سعبد .

لجأ أكثر من مرة الى الوقوف فى ركن منعزل ووجه ينبىء عن التهاب دمه ، تصل اليه خافتة انغام الموسيقى وعطور الزهور واصطكاك الأقداح ، يسعى لكى يلتقط من وسط ضجة الحفل تأتيه من بعيد صوتك أنت ، اسمعه وأنا معذب بك ومع ذلك فأنى جد سعيد كم يستبد به الحنق حين يتيسر له التحدث الى ماجدلينا فيرميهرن ربة الزلات والعثرات فيلقى عندها فهما وبشاشة ووجها ضاحكا دون أن تتحول فى الوقت

ذاته عن أخذ الأمور مأخذ الجد كما يفعل هو ، على حين أن الشقراء انجه حتى حين يجلس بجوارها تبدو له بعيدة عنه ، غريبة ، غامضة ، مذهبـــه فى الكلام ليس مذهبها ولا لغته لغتها ، ومع ذلك فهو فى نشوة وسعادة . يقول لنفسه : ليس هناء ىالانسان أنيكون محبوبا ، فهذه سعادة مبعثها الغرور الذى لا يسلم من الشبع والسأم . أما الهناء كله فهو أن تكون أنت المحب ، وأن يتصيد بين الحين والآخر لحظات عابرة يخيل لك فيها أنك محبوب ممن تحبه .

وسجل طونيو كل هذه الخواطر فى ذهنـــه وتتبع دلالتها واحس بها فى أعماق روحه . وأخـــذ يحدث نفسه : الوفاء ! اننى يا انجه باق على الوفاء لك الى آخر أيامى ، تلك هى نيته الطيبة ، ومع ذلك يهمس له صوت ، تلفه الخشية والأسى ، ما بالك قـــد نسيت هانزهانسن مع أنك كنت تألفه وتسعد بصحبته ، كان أقرب الخـــلان اليك وأعزهم عندك ، فماذا بك قـــد نسيته ، ومما يزيد الأمر قبحا وفجيعة أن هذا الهمس الذى يوسوس له بشىء من الخبث قد صدق ، فقد عمل مرور الزمن عمله ، وأفاق طونيو ذات يوم فاذا به لا يجد فى نفسه هذا الاقبال على أن يضحى بروحه بلا شرط أو قيد ارضاء لانجه المرحة ، اذ أحس فى قلبه بالرغبة والقدرة على أن يحقق فى غد وبوسائله هو وحده ، مستقلا بأرادته ، غير مرتبط بأحد غيره ، اعمالا رائعة غير قليلة ، ولكنه كان مع ذلك يطوف بمعبد حبه الذى تتقد جذوته فى قلبه بطهـــارة وبراءة يركع لها ويؤجج شعلتها بما وسعه من حيلة ، لأنه يريد أن يثبت على وفائه ، ومع ذلك ما مر وقت طويل

حتى انطفأت هذه الجذوة ، خلســـة وبلا ضجة أو ثورة ، غير أن طونيو ظل مع ذلك زمنا يتأمل معبــد حبه الذى انطفأت جذوته ، يتنازعه شعور بالدهشة وشعور بخيبــة الأمل من أن الوفاء محال فى هــذه الأرض. .ثم هز كتفيه مستسلما ومضى لحال سبيله .

الفصل الثالث

يهل طونيو على الدرب الذى ينبغى له أن يسلكه فيسير فيه بخطى بليدة متراوحة ، وهو يصفر بفمه وينظر الى بعيد مميلا برأسه الى جنب ، فاذا انحرف عنه الى غيره فلأن بعض الناس ليس لهم طريق مرسوم .

وكان اذا سئل عن العمل الذى يزمع أن يتولاه ويعتمد عليه مستقبله أدلى باجابات متباينة ، اذ كان من عادته أن يقول انه يعتقد — بضمان من وحى قلبه — أنه مستنبط لقدرات تعينه على اقتحام أكثر من مسلك واحد وذلك دون أن يفارقه وعى دفين بأن هذه المسالك كلها ما هى الا أحلام مستحيلة التحقق .

وحتى من قبل أن يغادر المدينة المحشور داخل أسوارها وهى مسقط رأسه كانت السلاسل والروابط التى تشده اليها قد تراخت برفق وعلى مهل ، فان أسرة كروجر العتيقة تفتتت مرة بعد أخرى وتفرقت ، فى تقدير بعض الناس ان غرابة طبعه كانت نذيرا بالحال الذى آلت اليه أسرته ، جدته لأبيه — عميدة الأسرة — ماتت ، وبعد قليل لحقها أبوه ، هذا الرجل الطويل القامة ، المتفكر ، الأنيق الملبس ، الذى لاتخلو عروة سترته من زهرة برية وبيعت دار الأسرة الفسيحة وانطوت صفحتها واغلق المتجر أبوابه وانقطع عمله ، أما أم طونيو ، أمه الجميلة المتقدة العواطف ،

البارعة فى العزف على البيانو والماندولين والتى كانت لا تبالى أقل مبالاة لشىء يحدث فقد وجدت لها زوجا ما أن مضى عام واحد على ترملها ، بعلها الجديد رجل موسيقى امام فى العزف وله اسم ايطالى ومضتترافقه فى رحلاته الى بلاد بعيدة مشمسة ، وقد رأى طونيو كروجر فى مسلك أمه شيئا من الطيش والنزق ولكن هل كان فى مقدوره أو فى اختصاصه أن يردها الى الرشـــد والصواب ، انه انصرف الى نظم الشــعر ولا يقــدر حتى أن يبين ويفصح عن المســلك الذى سيختاره لحياته .

هجر مدينته أم الشوارع المتعرجة ، مسقط رأسه، بمنازلها ذات القمم المثلثة الأضلاع والتى يلفها عويل رياح رطبة ، هجر النافورة وشجرة الجوز العتيقـــة وخلان صباه ، اليهم كان يفضى بأسراره ، هجر البحر الذى كان يهيم به أشد الهيام دون أن يأنس فى نفسه شيئا من حزن ، ذلك أنه كان قد تضنج عمره ورشاده ووعيه بنفسه ، فاستعاض له هــذه بهذه المعيشة الراكدة الخاملة التى احتبسته أسيرا فى قبضتها ووهب نفسه وكرسها للقيم التى بــدت له أسمى شىء على الأرض ، يحس ان الاختيار قد وقع عليه لكى يخلص لها ، وهى التى تبشره بالمجد والشهرة ، قيم الفكر والتعبير التى تبسط جناحيها بابتســام على سرائر البشر ووجدانهم منح نفسه لهذه القيم بكل حمــاس شبابه فكافأته بكل ما تقدر عليه من عطاء وأن اجتبت منه بلا رحمة فى مقابل ذلك ضريبتها التى لا تتنــازل عنها ، هذه القيم هى التى جعلت نظرته تزداد حــدة ونفاذا ، اسمعته نطق المطامع التى تعتلج فى الصدور ، كشفت له ارواح النــاس ، وروحه هو ، كفلت له

بصيرة تنير له الأعماق وخفايا النوازع والكلام ، فى رأى الا البلاء والحماقة ، اذ الحماقة والبلاء .

حينئذ ألقى به العذاب وكبرياء التفرد وفتنة تملك الادراك الى أحضان وحدة مريرة اذ كان من المستحيل عليه أن يخالط أناسا طبعهم خام ونفوسهم لاهية وبلا ملامح ، ينفرون من هـذا السر الغامض الذى يطالعهم به اشراق جبهته ، وفى مقابل وحدته أصبح يجد متعة تزداد لذتها مع الأيام فى نبع اللفظ وتأمل الشكل اذ كان من عادته أن يقول ــ كما خبر ذلك فى نفسه من قبل ــ ان ادراك المرء لنفسه يقوده حتمـا الى الكآبة اذا لم يسعفه ما يهبـه له الغوص على المعانى والألفاظ والسعى لبلوغ قمة الكمال فى التعبير من يقظة وجذل .

وجعل اقامته فى المدن الكبرى فى أقاليم الجنوب التى تعمل شمسها فيما يؤمل على انضاج فنـه وانمائه بسخاء كأنه نبت المناطق الاستوائية ، لعل ارث الدماء التى كانت تجرى فى عروق أمه هو الذى جذبه الى تلك الأقاليم الجنوبية ولكن لمـا كان قلبه موانا خاليـا من الحب منذ غرق فى مغامرات اللذة البهيمية وارتمى فى أحضان الشهوة والخطيئة الكاوية وكان يجد فى ذلك كله عذابا يفوق الوصف ، لعله أيضا ورث طبع أبيه ، هذا الرجل الطويل ، المتفكر الأنيق ، الحريص على وضع زهرة برية فى عروة سترته ــ هذا الارث أرهقه وأذاقه أشد العذاب وهو متمرغ فى منتديات السفلة فى قاع المدينة ، أينما كان . هذا الارث هو الذى يوقظ فيه أيضا أحاسيس نفسه فتهفو بحنـان غامض الى متع الروح التى كان ينعم بها من قبل ولا يجدها بـين ملذاته الحاضرة .

تملكه تقزز من المتعة الحسية ومقت لهـا ، وملأه تعطش للطهر والعفاف ، للاستقامة الرضية الوديعة، حين يمضى فى تنسم أجواء الفن ، دافئـة رفيقة به معطرة بأريج ربيع سرمدى ، حيث كل الخلائق تنمو وتضطرم وتنبت فى نشوة خفية ، نشوة الانجاب . ولم ينتج له عن ذلك كله الا أنه وهو يتمزق بـين أقصى حدود النزعات ويتأرجح بـين مباهج روحية ترطب قلبه كأنها النسيم العليل ولذات حسية تفترسه بضراوة أصبح يعيش وهو يواجه عذابات ضميره بعيشـة مستهلكة له ، عجيبة ، مضطربة ، مخبولة ، يمقتها هو ــ طونيو كروجر ــ أشد المقت .

وكان يناجى نفسه أحيانا قائلا : يا له من ضلال ، كيف خرج من يدى وقوعى فى كل هذه المغامرات العجيبة مع أن طبعى ليس من طبع الغجر الرحل مولدهم فى عربات خضر ولهم ميل الى البوهيمية .

وكان كلما زادت صحته وهنـا زاد مزاجه الفنى رهافة وأصـبح متشددا عسير الرضى ، ذواقـة ، متأنقا ، له تأفف من كل شىء مبتذل ، شهيد الحساسية لكل ما يمس الكياسة والذوق ، فلما خرج لأول مرة عن صمته تلقـاه عشـاق الأدب بالترحيب والرضى وسرعان ما أصبح اسمه ــ هـذا الاسم الذى كان أساتذته من قبل ينادونه به حين يريدون زجره والذى وقع به على أول أشعاره عن شجرة الجوز العتيقـة ونافورة الماء والبحر ــ هذا الاسم الذى يختلط فيه تراث أهل الجنوب وأهل الشمال ، اسم من أسماء الطبقة البورجوازية أريد له أن يفوح منـه عطر بلاد ساحرة بعيدة ــ أصبح هذا الاسم فجأة رمزا للبشارة بقدرات فائقة اذ جمع فى انتاجه بـين الاستمداد من

أعماق تجاربه المريرة وتكريس نفسه لفنه بدأب نادر المثال ، عنيد ، طموح ، يجاهد لاسترضاء حساسية ذوقه المرهف الأنوف من الابتــذال ، وتحملت روحه عذابات جمة لكى يسفر مخاضها الأليم عن مؤلفــات بهية رائعة .

لم يكن فى عمله يكدح كدح رجل يسعى وراء لقمــة العيش بل كدح رجل لا يريد أن يفعل شيئا سوى تعهد عمله ورعايته ، قيمته واعتبــاره فى نظره ألا يكون انســانا محــــدودا بين الأحيــــاء بل أن يــكون انسانا مبدعا خلاقا ، فالأيام الفواصل بــين فترات الابداع تمر بلا طعم ، بلا جدوى ، عاطل هو فيهــا كالممثل حين يغسل عن وجهه الأصباغ التى لا يظهــر بها الا وهو تحت الأضواء فوق خشبة المسرح ، كان يعكف على عمله فى صمت ، محبوسا فى عقر داره ، محتجبا ، مليئا بالاحتقار للألمعات من الــكتاب الذين يحق لمواهبهم أنتوصف بأنها مجرد حلية يتزينون بها فى المجتمعات ، وسواء فقراء أو أغنياء ، يجوسون خلال الناس بسحن تنم عن التوحش والعصيان أو باستعراض أربطة للعنق بها فخفخة متعمدة ، شــأن من يؤمن بأنه سعيد ظريف ، فنان الى أقصى حد دون أن يعلموا أن الأعمال القيمة لا تولد الا فى قبضــة معيشة شقية وأن الذى يتعلق بأذيال الحياة لا ينهض له عمل ، وأنه لكى ينبض لك عمل بدفء الحياة ينبغى أن يعهد قلبك برودة الموت ويرضى بها ..

الفصل الرابع

وقف طونيو كروجر على عتبة المرسم وهو ممسك قبعته بيده ، بل محنيا رأسه قليــلا وقال مستأذنا ليزافيتا ايفانوفنا مع أنها صديقته ووديعة أسراره :

ـ أتسمحين لى بالدخول ؟

أجابته بلهجتها المنغمة :

ـ ادخل ، أرجوك ، بلا تكلف ، آمنا وصدقنا أنك ربيت أفضل تربية وأنك متمسك بآداب السلوك .

تقول له هذا وهى تنقل الفرشاة ولوح الألوان الى يــدها اليسرى لتمد له اليمنى وتصافحه ، مصــوبة نظرتها اليه وهى تضحك وتهز رأسها . قال لها :

ـ كيف أدخل وأنت مستغرقة فى عملك ، دعينى أنظر ، حقا لقد قطعت شوطا طويلا .

وأخذ ينقل بصره بين التجارب الأولى الملونة المسندة فوق المقاعد على جانبى الحامل وبين اللوحة الكبيرة ، ملأتها خطوط فى مربعات متشابكة مرسومة بالفحم ـ مشوشة لا تبــين وان أضيفت فوقها أول لمســات الفرشاة بالألوان .

كان ذلك فى مدينة ميونخ ، فى طابق علوى من بيت يقع خلف شارع شلنج ، من وراء النوافذ الشمالية العريضــة سماء زرقاء وزقزقة عصــافير وشمس ساطعة ، ويهب على المرسم من طاقات عالية مفتوحة نسيم الربيع ، عليلا رقيقا ، تخالطه رائحة معاجين

الألوان وزيوتها التى تغشى المرسم ، وضياء ذهبى لعصر يوم مشمس يغمر عرى المرسم بلا عائق وينير بكرم أرضه فيتبين بعض عطبها كما ينير المنضدة الخشنة بجانب النافذة ، فوقها البرطمانات وأنابيب الألوان والفرش ولوحات المحاولات الأولى ــ ولا اطار لها ــ مستندة الى جدران المرسم العارية وينير أيضا هذه الستارة الحريرية المنهرئة التى تفصل عن الحجــرة ركنا معــدا لجلسة مريحــة ، مزودا بأثاث أنيق ، غشى الضوء اللوحة التى لم تتم بعد ، منصوبة فوق الحامل كما غشى الشخصين الواقفين أمامها : فنان الشعر وفنانة التصوير .

لعــل عمرها يقارب عمره ، أى أنهــا لا تزيد عن الثلاثين الا قليلا وكانت تجلس على مقعد واطىء فى أزار حالك ملطخ بمعاجين الألوان ، وذقنها معتمــدة على كفها ، لها شعر بنى متموج فى حلقات بدأت أطرافها على الجنبين تحول الى لون الرماد ، تنســدل على صدغيها وتحيط كالاطار بوجهها الأسمر ، له سحنة أبناء الصقالية ، وجه جذاب له أنف واطىء العرنين ووجنتان بارزتان وعينان سوداوان صغيرتان لامعتان، كانت هيئتها تنم عن التوتر والتحدى ، كأنمــا تواجه استفزازا أو تحديا تتفحص لوحتها من جنب بنظــرة من بين جفنين نصف مطبقين .

وقف الى جانبها ، يده اليمنى فوق خاصرته ، وبده اليسرى تبرم فى عجلة شاربه البنى اللون يقطب فى تجهم حاجبيه المنحدرين ، على حين أخــذ يبعث من شفتيه صفيرا خفيفا كعادته ، ملابسه فى غاية الأناقة والترف ، سترته لها لون رمادى هادىء وتفصــيل محتشم ، ولكن جبينــه الذى ترتسم عليــه امارات

العذاب ، عنده يفترق شـــعره الغامق نصفين فوق رأسه على نحو تستريح له العين لبساطنه وتوفيقـــه ــ هذا الجبين بدا له اختلاج ينم عن توتر الأعصاب ، ها هى ملامح وجهه ــ مطابقة لطراز ملامح أهــل الجنوب ــ قد جعلها تقدم العمر ومر التجارب محددة أتم تحديد ، كأنما نقشها وحفرها أزميل نحات فى حجر ، على حين بقى فمه محتفظا برسم ينم عن الوداعة ، وكذلك ذقنه ، رسمها لا يزال كأنه من صنع قلم رشيق يهيم بالرقة .

مكث هذا برهة قصيرة ثم مر بكفه من فوق جبينه وعينيه وقال وهو يستدير :

ــ ما كان ينبغى لى أن أحضر .

ــ ولم لا يا طونيو كروجر .

ــ نهضت لتوى عن عملى وجئتك ياليزافيتا ، والذى كان يشغلنى فى هذا العمل تمثل لى بعينه وذاته فى رسمك ، الأصل لوحة خام عاطلة ، مبذولة للفنان ، معدة له ، يتشكل فوقها أول الأمر ــ باهتة مختلطة ــ محاولات للرسم وتعديل الرسم ثم يضاف اليها بعض بقع من الألوان ، هكذا كان يتراءى لى سير عملى الذى انشغلت اليوم بمعاناته ، فاذا بى حين جئتك أجــد أمامى نفس المعاناة تنم عنها لوحتك ، وأضاف وهو يتشمم هواء الحجرة ، ليحس بجوها المعبق برائحة الزيوت والألوان ، نعم ، أجد هنا حين معاناتى للبحث عن الصلح الذى يفض التناقض والتصادم أن هـــذا هو مرجع عذابى وأنا منكب على العمــل فى خلوتى بدارى ، حقا انه أمر عجيب ، حين يملك الانسان خاطر فاذا به يجده معبرا عنه أينما ذهب ، يكاد يسمع همسه فى حفيف الريح ورائحة الوان الرسم وعطور

الربيع ، ألست معى ؟ نعم ، انه الفن ، ثم يصاحبه شىء آخــر ، ما هو وكيف هو وما اسمه عنــدك ؟ لا تقولى انه الطبيعة ، لأن الطبيعة ياليزافيتا لا تصيبنا بالاعياء بعد استنزاف طاقتنا على الخلق كمـا يفعل التعبير الفنى ، حقا كان الأفضل لى ان أخرج لنزهة وان كنت غير واثق أنها كانت ستنفعنى ، منــذ قليل وبالقــرب من دارك التقيت بزميــل لى هو ادالبرت القصصى فقال لى بلهجته العدوانية المألوفة : اللعنة على الربيع ، انه أبشع الفصول ، أفتقدر يا كروجر أن تستبقى فى ذهنك فكرة واحدة رائقة ، ان تقبــل بهدوء على رسم ملامح وجه ولو بأبسط الخطوط ؟ أن تظفر بأقل غنم من عملك ؟ أن تحــدث الأثر الذى نريده ؟ أفتقدر أن تفعل شيئا من هذا أيام الربيع حين يدغدغ الدماء فى عروقك بلا حياء ، ينفض جســدك حشد من الأحاسيس المتطفلة مخلوعة العذار ، ماتكاد نتفرسها حتى تجدها سوقية مبتذلة ، عقيمة ، لا طائل لك من ورائها ، واضاف زميلى هذا : اما أنا فسأذهب الى المقهى ، فهذا موقع حياوى لا يتأثر بتقلب الفصول كأنما يتمثل لى فيه اذن أعلى سماء يبلغها التعبيـــر الفنى ، لا ينزل منها الا أنبل الأفكار ، هذا ما قاله لى قبل أن يمضى الى المقهى وليننى صحبته .

أمنعها حديثه فقالت له :

— حديثك شيق ، ودعنى أقول لك أن الدم الذى يدغدغ العروق بلا حياء ليس دما وقاحا أنه على حق على نحو ما ، الربيع ليس أفضل الفصول ، قد يصدق هذا القول ولكن اسمع لى الآن ، ربيع أو لا ربيع ، لابد لى أن أنجز فى عملى خطوه صغيرة ، ان اتم رسم بعض الملامح ، أن احدث اثرا اريده كما يقول زميلك

ادالبرت ثم بعدها نجلس فى الصالون ونشرب الشاى وتنطلق فى حديثك كما تشاء ذلك أننى أجـدك اليوم منقلا بالهموم وتود ان تخفف منها ، أما الآن فخـذ راحتك حيث شئت بجانبى ، مثلا فوق هذا الصندوق، هذا اذا كنت لا تخشى المساس بثيابك الارستقراطية.

وأجابها وهو يرقب كيف تخلط معاجين الألوان فوق لوحهـا .

ــ دعى ملابسى فى حالهـا ياليزافيتا ايفـانوفنا ، أتريدين أن أخالط الناس وأنا مرتد ستره من القطيفة ممزقة أو ستره من حرير أحمر قان الى آخر هـذه المظاهر المعروفة عن الفنانين ، حقا ان الفنان لا يسلم من نزعة الى البوهيمية ، ولكن ينبغى له أن يسترها فى قلبه ، أما عن مظهره فيلزم أن يكون ملبسه معتنى به ومسلكه بلا عوار ، كلا ، قلبى ليس متقلا بالهموم اليوم ، المسألة أننى أواجه مشكله أو تناقضا يشغلنى ويمنعنى عن العمل ، نعم ، فيم كنا نتكلم ، آه ، عن ادلبرت القصصى ، وقوله لى أن الربيع هو أشـنع الفصول ، هذا حكمه وقد نفذ حكمه فمضى الى المقهى، أعترف لك أننى مثله ، واجد أن الربيع يصيب أعصابى بالتوتر وبأجناس من الأحاسيس الوضيعة اللذيذة فى آن واحد ، انا ايضا لا أسلم من الاهتزاز لها غير أنى لا أستطيع ان أنحى باللائمة على الربيع او أن أحتقره لهذا السبب اذ أشعر فى قـرارة نفسى بالخجل ازاء سذاجة تحايله على القاء الشباك فى طريقنا ، ازاء اعتزازه بنضارة شـبابه التى لا نعرف الهزيمـة ، فأصبحت لا أدرى هل ينبغى لى أن أحسـد ادلبرت أو أحتقره لأنه غير مبتل بمثل هـذه الأحاسيس وفى قلبه مثلى .

حقا لا أحد يجيد العمل فى فصل الربيع ، لماذا ؟ لأن الاحساس به يتغلغل فى أعصابنا ، والكتاب الأغرار هم الذين يعتقدون أن الفنان أسير أحاسيسه وأنها هى التى تقوده ، وكل فنان صادق يبتسم برثاء لهذا الرأى الخاطىءالذى يصدر عن السذاجة والعجز، ذلك أن فيض القلب ليس فى نظر الفنان هو العنصر الأساسى فى عمله ، هذا الفيض ما هو الا المادة الخام ، الغفل فى ذاتها فيتناولها الفنان بلا انفعال ، ويسيطر عليها ليشكل منها صورة جمالية دون أن ينفعل ، بل يعمل كأنما بتسلى ، كأنما عمله على هذه الصورة هو عنده نوع من اللعب ، أما اذا احتفل بفيض قلبه غاية الاحتفال وتأثر به اشد التأثر وحشد كل قواه لخدمته فان عمله يستحق أن يوصف بأنه فاشوش فى فاشوش ، لأن الفنان اذا تضعضع واستجاب لعواطفه كل الاستجابة فلن يخرج من يده الا عمل ثقيل الوطأة ، خام ، متهالك ، متخبط ، متقبض ، ممل ، مبتذل ، بلا جذور ، بلا اطار ، طعام بلا ملح ، أى عمل خلو من روح الدعابة ومؤدى هذا كله أن يكون وقع هذا العمل عند القراء هو عدم المبالاة وعند الفنان هو خيبة الأمل والأسى . صدقينى ياليزافيتا ، ان الأثر الأدبى الناجم عن التضعضع للعواطف أو عن العواطف ذاتها ابان اتقادها سيكون دائما عملا مبتذلا ، لا قدرة له على النفع او الامتاع ، اذ لا ينجم أثر له طابع جمالى الا عن اهتزازات جهاز عصبى يكون مشوبا ببلاء يسلم منه عامة الناس ، أعنى به هذا الجهاز العصبى الذى يختص به الفنان وحده وما يصحب اهتزازات هذا الجهاز عن جذل رطب ، بلا حمى ولا شرر متطاير .

وكأنى اقول أن الفنان ينبغى له أن يبقى الى حد ما خارج عجينة الانسانية ، أن يتجرد منها بقــدر ما ، وتكون له مع هذه الانسانية معايشة ولكن من بعيــد لبعيد ، غير ناظر بمسلكه هذا الى تحقيق مصلحة أو غنم ، حتى يجد نفسه بفضل القدرة التى تملكها أو فى الحقيقة بفضل اغراء هذه القدرة له على استخدامها خليقا بأن يعبر عن هذه الانسانية وكأنها لعبة بــين يديه ، أن ينقل الينا صورة لها تسم بحسن الذوق والاصابة معا ، أن تملك موهبــة الأسلوب والشكل والتعبير هو فى ذاته دلالة بديعة على ان الفنان يلقى الى الانسانية نظرة من بعيد ، وهو بارد الأعصاب غير منفعل ، نعم ، هذا حرمان وتجرد لا مفر منهمــا للفنان ، فالعواطف السليمة العفية ــ مهما كان رأيك فيها ــ لا شأن لها بمزاج الفنان ، ولا حكم لها عليه ، انما يعهدها فى نفسه فور أن يرتد ويصبح واحدا من عامة النــاس ويبدأ قلبــه ينبض بمثــل مشاعرهم واحاسيسهم ، أن ادلبرت يدرك هذا وهذا هو سبب ذهابه الى المقهى ، وهى بالنسبة لفصل الربيع ميدان محايــد .

قالت له مليزافيتا وهى تغسل يديها فى وعاء من الصفيح :

ــ حلال على صديقك ذهــابه للمقهى ، أما أنت يا عزيزى فلا داعى لأن تحذو حذوه .

أجابهــا :

ــ نعم ياليزافيا ، لن احذو حذوه لا لشىء الا اننى اشعر مرارا فى مواجهة الربيع بخجل من أن مزاجى يلقى قياده كله الى الفن وحده ، صدقينى اننى اتلقى احيانا خطابات من مجهولين مليئة بعبارات الثنــاء

على انناجى ، انها من اناس تأثرت قلوبهم بمـــا كتبت وعبرت عن اعجابها بى ، اقرأ هذه الخطابات فيمس قلبى ما تنطق به من ود تلقائى ، ود غزير من فـــرط انسانيته ثم اشعر بالرثاء لما اجده فى هذه الخطابات من حماس غارق فى السذاجة ، ثم يحمر وجهى خجلا حين يتمثل فى خاطرى حالهم حين يزول حماسهم ويحل محله برود اذا ما تسنى لهم القاء نظرة وراء الستار، ان الأمر الذى سيستعصى عليهم ادراكه بسبب براءة طويتهم هو أن الابداع فى الادب أو التمثيل المسرحى او التلحين هيهات أن يصدر من رجـل سوى سليم البنيان والأعصاب ، ولكن هذا كله لا يصـــدنى عن تقبل اعجاب هؤلاء الناس اذ أجده يحثنى علىالاندفاع فى العمل ، اننى آخذ هذا الاعجاب مأخذ الجد وأقلد كالقرد هيئة عظمـــاء الرجال ومسلكهم ، لا تحاولى مناقشتى باليزافيتا ومجادلة اقوالى ، ثقى أننىمريض أكاد أهلك من شدة الضنى بتصويرى لركب الانسانية دون أن يكون لى دور فيه أو نصيب . والسؤال الأخير هو : هل الفنان رجل كبقية الرجال ، دعينى اقترح فأقول لعل الجواب عند النساء . نحن الفنانين أشبه ما نكون بطاقم المنشدين فى قداس البابوات ، لأجل أن تكون لهم أصوات الملائكة ينبغى أن يكون لهم اصوات النساء فلا هم ذكور ولا هم اناث ..

— ينبغى أن تخجل من نفسك يا طونيو كروجــر تعال الآن نشرب الشاى ، ان الماء يكاد يغلى وها هى السجائر أمامك هات ما عندك عن شذوذ الفنان عن عامة الناس ولكن يجدر بك حقا أن تخجل من نفسك ولولا ادراكى أنك تهب نفسك بحماس وفخر للرسالة المقدرة لك لسمعت منى كلاما آخر .

ـ لا تحدثينى عن الرسالات بالبزافيتا ايفانوفنا ، ليس الأدب رسالة ، انما الأدب لعنة ، أتعرفين متى يبدأ شعور المرء بهذه الحقيقة ؟ فى وقت مبكر ، مبكر الى درجة مفجعة ، فى وقت كان يكون من حقه فيه أن يظل فى وئام وسلام مع خالقـــه والكون ، يبدأ ادراكه لهذه الحقيقة حين يبدأ احساسه بأنه منفصـــل ، فى تعارض عجيب غير مفهوم مع أسوياء الناس ، بينه وبين الناس هوة تحفرها حساسيته المتهكمة وقدرة بصيرته على النفـــاذ والكشف والادراك ، وميله الى التشكك والمعارضة ، وتزداد هـــذه الهوة مع الأيام عمقا واتساعا فاذا به يشعر أنه وحيد ، لا وئام له من بعد بينه وبين الناس ، ياله من قدر ، هذه هى الكلمة التى سيهتف بها لسانه لو افترضنا أن قلبه بقى حيا قادرا ولو قليلا على النضـــارة والرقة والعطف حتى يدرك فجيعته ، ان ادراكه بفجيعته يتوهج لأنه يشعر كأن يدا خفية دمغت جبهته بخاتم يميزه عن النـــاس ويدرك أن هذا التمييز ستلحظه كل العيون ، لاتنقطع مغالبته ومجاهدته لاحساسه المرضى بذاته . عرفت فيما مضى ممثلا مسرحيا من النوابغ ، لا تنقطع مغالبتـــه ومجاهدته لاحســـاسه المرضى بذاته وشـــعوره الدائم بالقلق ، كان اذا لم يجد له دورا على المسرح فلا تكون هناك شخصية تحيا بفضل تمثيله لها فيحيا هو بهـــا لشدة تقمصه لها يصبح تمثالا مجسما للجمع بـــين عبقرية الفنان وتعاسة الانسان ، فهل هو ممثل نابغة، لا يتخذ من الفن مهنة يتعيش منها ، كأى مهنة أخرى؟ بل هو ممثل قد اجتباه الفن وحلت به لعنته ، يستطيع المرء فرزه من بين جميع الناس ولو لم يكن له افتخار بنفاذ بصيرة أو صدق فراسة ، اذ سيدل عليه ما ينطق

به وجهه من شعور بأنه منفصل عن الناس ، له حساب مستقل ، انه غير مقيد بولاء ، بأنه مفتضح ومراقب بسبب شهرته ، نطق وجهه هذا يجمع بين الاستعلاء والارتباك — هذا هو ما ينطق به وجه أحد الأمراء حين يجوس خلال الناس وهو فى زى عامة الشعب ، بملابسه مهما كثرت لا تستره ياليزافيتا ، فليتخف وليتنكر كما شاء ، فما يكاد ينطق بكلمة أو يلقى نظرة حتى يتبين الجميع انه ليس كبقية الناس ، بل مخلوق من جنس آخر ، جنس عجيب ، مختلف ، متنافر .. وشبيه بهذا الأمير ضابط الجيش أو السفير فى السلك الدبلوماسى .

ولكن ما الذى يجعل من الفنان فنانا ؟ .

لا شىء مثل موقف عامة الناس من هذا السؤال يكشف عن تململهم وضيقهم من الاضطرار لأعمال الذهن واجهاده وعن تعلقهم الفطرى بنعمة الراحة وخلو البال ، هؤلاء السادة الكرام حين يمس عمل فنى قلوبهم يقولون بتواضع هذا شىء نعده نحن منحة علوية ، ويفترضون ببراءة أن الأثر النبيل السامى لابد أن يتولد من مصدر نبيل سام ، فهيهات اذن أن يخطر ببالهم وهم يتحدثون عن هذه المنحة العلوية بأنها شىء جدير بأن يثير الريبة فيه ولا يبعث على الاطمئنان له ، وانه يستند الى أسس نكراء ، هى نذير لا بشير ، وكل الناس تعلم أن الفنان مفرط فى رهافة حساسيته وانه من السهل جرحه ، كما تعلم أن الرجل العادى الواثق بنفسه هو بمنأى عن هاتين الصفتين ، صدقينى ياليزافيتا ، ان هذا النمط من الناس المنتمى لزمرة الفنانين انما اكن له فى قرارة قلبى عين الاحتقار التى كان يلقاه من اجدادى فى

موطنهم على بحر البلطيق كل مهرج سيرك « بهلوان »
ولكنه احتقار يعبر عنه بلغة المثقفين لا بلغة الأسواق،
انصتى الى ياليزافيتا ، أننى أعرف صاحب مصرف له
غزواته فى سوق الأموال ، انه رجل بدأ لون الرماد
يتمشى فى شعره الأسود ، له موهبة فى تأليف القصص
وينصرف الى كتابتها فى أوقات فراغه ، وبعض قصصه
ممتازة ، ولكن رغم سمو موهبته — خذى بالك من
كلمة رغم هذه ، فانه لم يسلم من الدناءة ، فقد دخل
السجن لجرم كبير ، نعم ، كان فى السجن بدء انتباهه
وادراكه أنه صاحب موهبة وكانت تجاربه فى السجن
هى المحور الرئيسى الذى أدار حوله قصصه ، وقد
يكون من الحماقة أن نسارع الى الاستنتاج بأن التعرض
للسجن — على اى نحو — شرط لأن يصبح الرجل
شاعرا ، ولكن هل من سبيل للتحرر من شك يساورنا
بأن موهبته الفنية — فى منشئها وصميمها — ليست
وليدة فترة مكونة فى السجن بقدر ما هى وليدة النزعات
التى أدت به الى دخول السجن ، أفيجتمع فى رجل
واحد أن يكون صاحب مصرف ويكون قصيصا ، قد
يحدث هذا ولكن حدوثه نادر ، ولكن هل رأيت مؤلف
قصص هو فى الوقت ذاته صاحب مصرف منزه عن
الاجرام ، ممتع باحترام الناس ، ناج من كل شبهة
وريبة ؟ هذا مستحيل ، لا وجود لمثل هذا الرجل ،
نعم ، أنت تضحكين منى ولكن ثقى أن كلامى أقرب
الى الجد منه الى الهزل ، فليس فى الدنيا كلها معضلة
معذبة كمعضلة الفنان من حيث كونه فى باطنه مبدعا
وكونه فى ظاهره انسانا كبقية الناس ، وبالتالى
معضلة ما يتركه الفن على عامة الناس من أثر ، أعنى
أشد الأعمال الفنية اثارة للاعجاب والدهشة واصدقها

تمثيلا لمعنى الفن ، اذن ما أعظمها لهـذا السبب ــ خذى مثلا عملا فنيا فيه مجافاة للفطرة السليمة وله ظاهر وباطن مختلفان وهو أوبــرا تريستان وايزولد لفــاجنر وارقبى أثره على مخلوق فى نضـــارة القلب وازدهار الصحة وسلامة الفطرة واستقامة الأحاسيس سترينه يتسامى ويزداد قوة ويمتلىء بالحماس المتقــد النبيل ، وقد يتحرك نفسه هو أيضا فيختبر قــدرته على الابداع مرحى بك أيها الغر المبتدىء ! هيهــات أن يتصور أننا نحن الفنانين تختلف دخيلتنا كل الاختلاف عن الصورة التى تخلفت لنــا عنده ، بفضل اتقاد قلبه وصــدق حماسته ، وقد رأيت كيف يحاط الفنــان بالترحيب والاحتفاء من الشباب والنساء .. أما أنا فأعلم الحقيقة ، حقيقة الابداع الفنى من حيث منابعه ومظاهره وشروطه ، كم راقبت هؤلاء الفنانين مرارا وتــكرارا ..

ــ أهذه هى كل خبرتك يا طونيو كروجر ، أهى مقتصرة على مراقبتك لهم .. للغير .. أم لها مصدر آخــر ..

لم يرد عليها بل قطب حاجبيه وأخذ يصفر بشفتيه.

ــ ناولنى قدحك يا طونيو فالشاى به خفيف وخذ سيجارة أخرى ، انت تعلم حق العلم أنك تأخذ الأمور على غير ما ينبغى بالضرورة أن تؤخذ به .

ــ هــذه هى عــين اجابة هوراشيو يا عزيزتى ليزافينا ، مواجهة الأشياء كما تريدين ، مواجهتها عن قرب شديد ، أليس كذلك ؟

ــ أزعم يا طونو كروجر أننــا نستطيع أيضــا مواجهتها عن قرب من جانب آخر وتحت ضوء مختلف،

ما أنا الا امرأة بسيطة ، ترسم لوحات ، ماذا أردت أن اناقضك وأن ابرىء موهبتك من اتهامك لهـا ولو بمرافعة متواضعة فلن يتسنى لى أن اقول شيئا جديدا ، غاية الأمر سأذكرك بأمور تعلمها أنت حق العلم عن الأدب كيف يمنح الطهر والشفاء ، عن جموح العواطف كيف يلجمه استنارة البصيرة والافصاح ، عن الأدب الذى يقود الى الفهم ، الى التسامح ، الى الحب ، عن سحر الكلمة المانحة للنجاة والخلاص ، عن فن الأدب باعتباره أنبل مظهـر للعقل واشرفه ، فالشاعر هو الانسان الكامل ، هو القديس ، اهـذا نظر للأشياء لا يشفى غليلك من التعجب لها ؟

ـــ لك الحق أن يكون هذا هو كلامك ياليزافيتا ، اعتمادا على اعمال الشعراء فى الأدب الروسى البديع الذى يفتخر به وطنـك والذى يتمثل فيه أتم تمثيـل قداسة الأدب التى تتحدثين عنها ، ولكن لا تحسبى أن اعتراضاتك ليست فى بالى ، فانها ممـا يشغل ذهنى اليوم ، انظرى الى ، هل تطالعك منى مظاهر بهجة مفرطة ، اننى أتبدد كأنما شخت قليلا ، ولحقنى الجفاف وركبنى التعب ، دعينا من هذا ولنعـد الى حكاية العلم والادراك نتمثل رجلا تهديه فطرته السليمة الى الايمان بالخـير ، انه وديع حسن النية يتخاذل للعواطف قليلا ، مثل هذا الرجل اذا ملك بصـيرة كاشفة للنفوس فانها خليقة بأن تستهلكه وتهدمه هدما كاملا ، فالمسألة هى الا ندع أحزان العالم تضعضعنا ، وأن نلحظ ونرقب ونسجل فى ذهننا وننتفع بالجديد من تجاربنا حتى المفجعة منها ، ثم يكون لنا فى الوقت ذاته ادراك بأننا اسمى معنويا من هذه اللعبة المخترعة التى تسمى بالوجود أو بالحياة ، نعم ، حقا تمر بنا احيانا

لحظات نشعر فيها أن هذا الوجود يستولى علينـــا ويغرقنا فى أحضـــانه بالرغم من احساسنا بالجـــذل لقدرتنا على التعبير . هناك من يقول الفهم يتبعـــه التسامح ، هل هذا صحيح ؟ لست أدرى ، ان نفوسنا تعرف أحيانا شعورا أسميه التقزز من المعرفة ، هذا الشعور الذى يكفى معه للرجل أن تكشف بصـــيرته خلسة باطن أمر من الأمور لكى ينقزز منه كل التقزز . فهـــذا غيم هيهات أن يتبعه تسامح ، أننى استشهد بهاملت ، انه خير مثال للأديب ، كان يعلم حقيقة نفسه ، وأى انسان هو ، وأنه مقدر عليه أن يدرك أشـــياء لا استعداد ولا قدرة له على ادراكهـــا ، حاله حال انسان يرى الأشياء بوضوح من خلال غيام الدموع التى ما تزال عالقة بأجفانه ، يدرك ويلحظ ويرقب وتكرهه نفسه أن يسجل فى ذهنه وهو يبتسم لـــكى يختزن فى ذاكرته كل ما يعلق به بصره حتى فى لحظـــة تنض يده على يد الحبيب والتقاء شفتيه بشفتيه ، وانمحاء بصره من شدة انقاد عاطفته ، هـــذا شىء يشع يالبزاغينا ، شىء وضيع ، يتقزز له النفس ، ولكن ما جدوى الثورة عليه ، وهناك جانب آخر سقيم لهذه المسألة ، هو مقابلة كل الحقائق بشعور تصنعه اللامبالاة وليدة التخمة ، والضجر المصحوب بالتهكم والاستخفاف عند الشبع من التجارب ، اتم مثل على الميل الى الصمت واختفاء المتعة فى الحديث تجدينه فى جلسة حلقة من الأذكياء طاف ادراكهم بكل الأشـــياء فكل خبر عندهم قديم مستهلك وباعث على الملل اذا عبر لهم انسان عن حقيقة تصيدها وامتلكها بعـــد أن كانت هاربة منه فسر بتوفيقه سرورا يكاد أن يكون صبيانيا لم يكن تعليقهم على اكتشافه المبتذل عندهم

الا نطقهم له بكلمة واحدة هى (طبعا ، طبعا) نعم يااليزافينا ، ان الأدب يورث الأعباء ، نعم ، قد يحدث لانسان — صدقينى — بدافع من ميله الى التشكك والارتياب واستصوابه الا يجهر برأيه أن يسلكه الناس بين الحمقى والأغبياء على حين أن الدافع له هو الكبرياء وعدم الايمان بجدوى الشجاعة فى معترك الآراء ، هذا هو ما أقوله عن العلم والادراك ، أما عن التعبير فانه عندى لا يتمثل فيه التنفيس عن النفس بقدر ما يتمثل فيه ترطيب العواطف المتقدة حتى تبرد بعد توهجها ، حقا ان هذا الرأى الأحمق السطحى القائل بأن التعبير وسيلة للتحرر من ضغط العواطف هو محض ادعاء تثور له النفس وتفسير فيه حل للمشكلة تغلب عليه برودة القبر لا دفء الحياة كأنى أقول لمن هصرت العواطف قلبه وهاجت أشجانه وانفعالاته لتجربه مرت به الا تبتئس ولا تيأس ، الحل سهل ، ما عليك الا أن تقصد أديبا فانه سيحط عنك أحمالك فى غمضة عين ، فهو سيحلل شعور قلبك ويكتشف له نمطا ويجعل له اسما ولسانا يعبر به عن ذاته فاذا بك قد شفيت من كل لواعج قلبك وأصبحت بقية عمرك تأخذها بلا مبالاة ، واعلم أن هذا الأديب لن يسألك عن خدماته جزاء ولا شكورا فتعود الى دارك وقد زال ارهاقك ، رطب القلب ، مستنير البصيرة تسأل نفسك ما هذا الذى كان منذ لحظة يعتلج فى قلبى فأجد له ألما لا يخلو من لذه كبيرة ، يا للعجب لصاحبنا هذا حين نجده رغم ذلك يصر من كل بد على الدفاع عن الأديب ، هذا الألعبان المغرور الذى قد قلبه من الثلج . ان ايمان هذا الأديب هو أن التعبير عن المشكلة انما هو فض وحل لها ، فاذا

قيض للكون كله صيغة تعبر عنه فان الكون كله سيجد فيها فضا وحلا للغزه ويتحرر ويفقد الهيئة التى وجد عليها ، نعم ، هو هذا ، مع انى لست فوضويا .

قالت له ليزافيتا :

ـــ كلا ، لست فوضويا ..

وكانت تمسك ملعقة الشاى قريبة من فمها وبقيت برهة جامدة على هذا الوضع ، قال لها :

ـــ هيا هيا ياليزافيتا ، اعلمى أننى لست فوضويا فيما له مساس بالعواطف الحية ، واقول لك أن الأديب لا يدرك أن الحياة قادرة على متابعة سيرها حتى ولو بعد أن تبوح بالتعبير عنها ، ومهما وجدت فى الأدب تطهيرا لها فانها لا تنقطع عن الاثم ـــ اذ أن كل فعل انما هو انم فى نظـــر العقل .. هـــذا ختـــام كلامى ياليزافيتا والآن انصتى لى ، اننى أحب الحياة ، هذا اعتراف أودعه عندك لكى تحتفظى به ، لم أنطق به لأحد قبلك ، يقولون عنى ويكتبون وينشرون اننى أكره الحياة ، اذ أننى أنهيبها واخشاها أو اننى أحتقرها ، أو اننى أمقتها ، وقد تلقيت كل هذه الأحكام بسرور داعب غرورى ، ولكنى ما أشد بعدها عن الصواب ، فانى أحب الحياة ، اراك تبتســـمين ياليزافيتا واعلم السبب ، ولكنى أناشدك الا تأخذى ما قلته لك الآن أخـــذك لصفحة من كتاب لأديب لا يعنى الا بمطالب التعبير الفنى ، اياك أن يرد ببالك سيزاربورجيا وكل شاعر ماجن جعل منه حامل اللواء فى كتيبة عشاق الحياة ، فانى أحتقر سيزار بورجيا هذا ، لا قيمـــة له عندى ، اذ لا افهم اطلاقا كيف يصح اتخاذ الشاذ والشيطانى مثلا أعلى .

كلا ان الحياة — هذا النقيض الأبدى لمنطق العقل واللفن — لا نبدى لنا للدلالة عليها وجها يوحى لنـا بصور مهولة عن أمجاد ملطخة بالدماء وعن جمـال وحشى فنحن — أعنى هؤلاء الذين لهم حساب خاص ومختلف عن حساب غيرهم — لا نتصور الحياة أن نكون مثلنا مستعلية على القياس والذى ينحصر فيه تطلعات أشد أمنا انما هى الحياة العادية المـألوفة الجديرة بالاحترام والاعجاب — الحياة التى بمنحهـا ابتذالها كل سحرها ، هيهـات يا عزيزتى أن يكون فنانا هذا الرجل الذى لا ننجذب أعز أحلامه وأشدها استيلاء على قلبه الا لعالم الأنق المرف والشـذوذ النزق ، والجموح الشيطانى ، هذا العالم الذى بجهل معنى امتلاء النفس سرا لعنف الطموح الى مبـاهج الحياة العادية المألوفة . من لى بانسان اتخذه صديقا، انسان صديق ، تقى ، ان فوزى بصديق من البشر يملأنى بالسرور والفخر ، ولكنى الى اليوم لم أظفـر بصـديق الا من بين أناس لهم طبـع الشـياطين أو الوحوش ، طبـع غير جـذاب ، أناس اذا خالطتهم حسبتنى أخالط أشـباحا عقـد الادراك السنتهم فهم يدورون بها فى أشداقهم — أعنى بهم الأدباء .

يحدث لى أحيانا أن أعتلى منصة وأجدنى فى روات أواجه أناسا أتوا للاستماع لى ، أقول لك يحدث لى حقيقة وأنا أنظر الى أفراد هذا الجمهور من حولى أن انشغل بمراقبة نفسى وأفاجئها بنظرة فاذا هى بكشف لى أنها منشغلة سرا بالتشوف للعثور بين المستمعين على هذا الذى يكون قد جاء من أجـل شخصى أنا ، ذاتى أنا ، هذا الذى يقام بيننا قنطرة يصلنى عبرها تصفيقة لى ورضاؤه عنى وشكره لى ، هـذا الذى

يجمعنى به الفن فى رباط مثالى ، غير أنى لا أجد من أبحث عنه ، بل أجد القطيع ، عين المجتمع الذى أعهده انه عين الحشد الذى كان يضم أوائل المؤمنين،أناس لهم أرواح راقية واجساد جمـــة تنقصها الرشاقة ، هم وحدهم الذين يتعثرون ويسقطون فى حلبة الرقص، انهم من هـــذا الصنف من الناس ، الذين يرون فى الشعر انتقاما من الحياة ، ولكنه انتقام برفق ، لايحدث أبدا أن تجدى فى هذا الحشد سوى نفر من الغلابة حملة الاشراق والآلام ، لا يأتى أبدا ياليزاميتا واحد من الآخرين ، هؤلاء الذين لهم عيون زرق ممن لانسأن لهم بهذه الهموم كلها .

ثم بعد هذا كله افلا يكون من الخطل وفساد المنطق الذى يؤسف له أن نريد للأمور أن تصبح على غير هذه الحال ، فمن الحماقة كل الحماقة أن تعشق الحيـــاة ثم تحشد كل قواك لكى تجذبها ناحيتك ، ناحية الحس المهـــذب المرهف ، والكآبة واستعلاء الأدب ، ان مملكة الأدب تزداد حينئذ اتساعا فى دنيانا ومملكةالطبع السليم والبراءه تزداد تقلصا ، ومما يتبقى لنا منهـــا ينبغى أن نحتفظ به ونحرص عليه ، والا نحث على قراءه الشعر أناسا يفضلون قراءة وصف التقـــاط صور الخيل وهى منطلقة فى عدوها . فهل هناك فى نهاية الأمر منظر أبأس من منظر الحياة وقد خللهـــا الفن ، ونحن الفنانين لنا احتقار شديد لمن يلم بمعبد الفن الملم الزائر اللاهى لا الملم القاطن المهموم ، اعنى به هذا الرجل الذى يحيا حياته كبقية الناس ثم يظن أنه قادر أيضا أن يكون فنانا اذا ما واتته الفرصة ، أننى أتحـــدث عن تجربة ذاتيه ، صـــدقينى لك أن تصورى حالى حين يضمنى أحيانا جمـــع من اناس

كرام مهذبين ، نأكل ونشرب ونترثر ، بسود بيننا التفاهم على أمثل وجه ويسعدنى أن أجدنى لفترة مندمجا بأناس لهم انكشاف وانبساط نفس كأننى واحد منهم ، وفجأة — وأنا أروى لك عن خبرة ، أؤكد لك . فينهض من بينهم شاب وسيم ، نعرف أنه ضابط فى الجيش ، لا يخطر ببالى أن يصدر منه فعل لايناسب زى السهرة الذى يرتديه من يغشى الحفلات طلبا للمتعة واللهو ، واذا به يستأذننا فى عبارة مقتضبة أن يقرأ علينا شعرا من نظمه فنأذن له ونحن نضحك ضحك المحرجين ، فاذا به يخرج ورقة كان يخفيها طول الوقت فى جيبه ويتلو علينا كلاما نظمه عن الموسيقى والشعر ، فيه تعبير مباشر عن احساسه فهو من ثم تعبير لا قيمة له ، تأملى هذا اذن ، ضابط وشاعر ورجل صالونات ! ما حاجته الى الابتلاء بفن الشعر ؟ وكانت النتيجة — كما هو المتوقع — أن استمع له الجميع بوجوه تنطق بالعناء فى صمت ، تصدر منهم أحيانا نأمة تعبر عن استحسان مكذوب. ويسود الجميع جو كثيف من الحرج ، أذل ظاهرة من معانى هذا المشهد التى ينتبه لها ادراكى هو وشعورى بأننى أتحمل قسطا من جريرة هذا الصدع الذى احدثه هذا الضابط فى زمرتنا ، بل صدقينى اذا قلت لك أننى أرى رأى العين نظرات بعضهم تتجه نحوى ، تنطق بالتهكم والاستبواخ ، أفلست ملتاثا بين الفن الذى يخبط فيه هذا الضابط .

أما الظاهرة الثانية فاليك صورتها ، هذا الضابط الشاب الذى كنت منذ لحظة أكن لشخصه وحسن أدبه احتراما صادقا أخذ فجأة يهبط فى نظرى درجة بعد درجة ، فيتملكنى شعور بالعطف عليه والرثاء له

فأتقدم اليه مع نفر من الحاضرين واستمد الشجاعة بدافع من كرم أخلاقهم وأقول له تهانى الحارة ياكابتن! أنت حقا موهوب ، وشعرك ظريف ، لا ينقصنى الا أن اطبطب أيضا على كتفــه ، ولكن مثل هــذا العطف والتلطف لا يليق بضابط أن يتطلبه من الناس ، الذنب ذنبه ، ها هو ذا بعد القاء شعره جامد فى وقفتــه ، يكفر عن خطيئته بهذا الاضطراب الذى يجلله ، خطيئة اعتقاده بأنه من المستطاع قطف ورقة واحــدة من شجر الغار رمز انتصار الفن دون أن يكون الثمن هو وداع الحياة المطمئنة .

كلا ، اننى افضل فى هــذا المجال قرينى القصصى صاحب المصرف المحترم ، ولكن ياليزافيتا هل تتهميننى بأننى منطلق فى ثرثرة لا ند لى فيها سوى هاملت ..

— هل انتهيت يا طونيو كروجر ؟

— كلا ، ولكنى سأطبق فمى .

— وأنا أيضا مستكفية بهذا ، وهــل تنتظر منى ردا .. ؟

— وهل عندك رد ؟

— نعم ، أعتقد ذلك ، وقد أحسنت الانصات اليك يا طونيو من البداية للنهاية ، واريد أن اوافيــك برد يناسب كل ما قلته لى ، يتمثل فيه حل المشاكل التى تضنيك وتعذبك ، ولكن كلا ، لا رد عندى ، فسبب مشاكلك انك — كما انت ماثــل امامى — لست الا واحدا من ابناء الطبقة البورجوازية ، لا اكثر ولااقل.

فسألها وهو متضعضع قليلا .

— أهذا ظنك بى ؟

— تحسبنى قسوت عليك ، اليس كذلك ؟ ولا مفر

لك من الاعتقاد بأن كلامى يبدو لك قاسيا ، لذلك اريد أن أخفف قليلا من وقع حكمى عليك ، أننى قادرة على ذلك اذ سأظل رغم هذا التخفيف أمينة لك وصادقة ، ما أنت الا واحد من ابناء الطبقة البورجوازية ، ضل فى طريق غير طريقه من هو طونيو كروجر ، ما هو الا بورجوازى طاش سهمه .

ساد الصمت ثم نهض بعزم وتناول قبعته وعصاه وقال لها :

— أشكرك يا ليزافيتا ، أستطيع الآن أن أعود الى دارى وأنا هادىء النفس فان ادراكى لمشكلتى قد فضها ..

الفصل الخامس

قال طونيو كروجر لصديقته ليزافيتا ايفانوفا وقد اقترب الخريف :

ــ سأسافر يا ليزافيتا ، يلزمنى تبديل الهواء ، وان أعيش فى الخلاء .

ــ ماذا بك يا صاحبى ، تريد الرحلة مرة أخرى الى ايطاليا .

ــ بالله دعينى من سيرة ايطاليا ، فقد مللتها حتى اصبحت أزدريها ، لقد مضى منذ وقت طويل هذا العهد الذى كنت أعدها فيه وطنى ، لأنها موطن الفن ، أليس هذا هو ما يقال ، السماء مخمل أزرق ، والنبيذ مكنال ، واللذة الحسية ودود ، كل هذا اصبح لا معنى له عندى ، نفضت منه اليدين ، كل هذه الحلاوة العسلية تصيب أعصابى بالتوتر ، أصبحت لا أطيق مخالطة من أجده فى ايطاليا من اناس لهم حدة فظيعة فى الطبع والحركة ، عيونهم سود كعيون الحيوان ، ان أبناء الرومان هؤلاء لا يلمع فى نظرتهم تعبير روحانى، كلا ، سأسافر فى رحلة قصيرة الى الدانمرك .

ــ الدانمرك ؟

ــ نعم ، أنا واثق بأننى سأفوز بمتع كثيرة من رحلتى للدانمرك . لم يقدر لى أن أزورها مع أنى عشت كل صباى قريبا من حدودنا معها ، ومع ذلك

لم ينقطع حبى لها وتأملى لصورتها من بعيد ، ان هذا السحر الذى أجده فى نفسى لبلاد الشمال لابد موروث عن أبى ، لأن أمى كانت أكثر ميلا الى هــذه الحلاوه العسلية الايطالية التى وصفتهــا لك وان كانت كل المتع عند أمى سواء ، أقرأى مؤلفات الدانمرك ، انها أدب عميق ، صان ، تثريه روح الدعابة ، لا أعلى عليه أدبا آخر ، أننى أحب هذا الأدب الدانمركى وانظرى أيضا الى طعام بلاد الشمال انه لا يفوقه طعام آخر ، لا كفء له الا من يملأ رئتيه هواء البحر ، ولست أدرى هل أنا كفء له أيضا ، ذلك أننى خبرته قليلا بسبب نشأتى اذ كنا فى أسرتنا نأكل أكل بلاد الشمال ، حتى الأسماء الشائعة فيها نجدبنها شائعة أيضا فى موطنى فى الشمال ، مثلا اسم انجبورج ، الا تسمعين فى نطقه عزفا على أوتار الهارب بنغمة شاعرية صافية ، ثم لا ننس البحر هناك ، بحر البلطيق ، نعم ، سأسافر الى الدانمرك بالبزافيتا لأننى أشتاق الى رؤية بحــر البلطيــق وأن يتكرر اســمه على مسمعى ، أهــل اسكندنافيا ، أريد أن أقرأ أدبهم فى الجو الذى نبت فيه وأريد أيضا أن أطأ بقدمى شرفة قصر كرونبرج حيث ظهر الشبح لهاملت فأسكن الحزن وطعم الموت فى قلب هذا الشاب النبيل البائس .

ــ وكيف سيكون وصولك الى الدانمرك ، أن جاز لى أن أسألك ؟

أجابها وهو يهز كتفيه وقد علت وجهه حمرة خفيفة:

ــ بالطريق المعتاد ، وسأبدأ من حيث أن ينبغى أن تبدأ رحلتى منذ ثلاث عشرة سنة ، أليس هــذا قد يبدو مضحكا ..

فابتسمت وقالت له :

ـ هذا ما كنت أريد أن أسمعه منك ، فسافر اذن في رعاية الله ، ولا تنس أن تكتب لي ، أنى سأنتظر منك خطابات تروى لى فيها تجاربك اليومية وكيف معيشتك فى الدانمرك .

الفصل السادس

وبـــدأ طونيو كروجر رحلته الى الشمال ، أنـــه حريص على أن يستوفى أسباب راحته فى سفره اذ كان من عادته أن يقول : حين يكون للمرء من داخله حياة يشقى بعذابها شقاء لا يعرفه غيره فمن حقه أن يلتمس من الحياة من حوله نصيبا من الراحة ، لا ضمان عنده ان يسافر حقا الا بعد أن تمتلىء عيناه من أبراج المدينة ذات الأسوار التى ودعها ذات مساء ليراها مرة أخرى ماثلة أمامه تحت ضوء المغيب فى لون الرماد . فكانت له بمدينته هذه المامة قصيرة وعجيبة .

وصل عصر يوم وقد شحبت الشمس وهى تنحدر الى المغيب ، ودخل القطار المحطة الصغيرة ، تفوح فيهـــا رائحة الدخان ، ما أعجب الفه لهـــا ، سحب البخار تحت السقف بفتحاته المغطـــاة بزجاج قـــذر تتفرق مزقا تتسكع يمنة ويسره كالعهد بها يوم رحل طونيو كروجر من هذه المحطة ذاتها ، ولا وديعـــة فى قلبه سوى شعور بالتهكم والسخرية .

انشغل بحقائبه ثم أمر بارسالها الى الفندق وغادر المحطـــة .

ها هى بعينها وذاتها عربة الحنطور أم جوادين ، فسيحة ، عاليـــة السقف ، تقف صفوف منهـــا أمام المحطة ، كل الذى طرأ هو أن طونيو أخـــذ يتفحص هذه العربات بنظرة مستفهمة ، تفحص بها أيضا كل

شيء صادفه ، قمم المنازل المثلثة الأضلاع ، وخيل اليه أنها تلقى عليه السلام ، يتفحص بها المارة : أناس شــقر لهم بدانة ومشية بليــدة ونطق للالفاظ خطف ولكن في وضوح ، غلبته ضحكة متوترة تشبه على نحو غامض نشيج رجل يتكتم البكاء ، واخذ يمشي متمهلا ، يلفح الريح البارد وجهه ، وعبر القنطرة المقامة فوق النهر ، تزينها تماثيل لشخوص أسطورية ثم ســـار أيضا بحذاء رصيف الميناء .

يا الهي ! كم هي ضيقة وملتوية كل المســالك في هذه المدينة ، أفمنذ الأزل تصاعد هذه المنازل المحنية السقوف الى قمة المدينة بجهد لا يخلو من خيــلاء ، مداخن السفن وقلوعهــا تؤرجحها الرياح برفق على سطح النهر الشاحب تحت ضوء المغيب ، أفي نيتــه أن يصعد مع هذا الشارع الى منعطف يقع عنــده المنزل الذي شغل أحلامه ، كلا ، ليترك ذلك الى غد ، أما الآن فهو محتاج الى النوم ، ثقلت رأسه من تعب السفر فلا تدور بها الا خواطر بليدة مغلفة بالضباب .

كان في المــاضي ــ خلال ثلاث عشرة سنة . يحلم أحيــانا أنه عاد مرة أخرى الى أسرته ، الى المنزل الفسيح الذي ترن فيه الأصوات ، المطل على شارع منحدر ، يحلم أيضــا أن أباه كان من جديد بالدار ، وأنه ينهال عليه بالتقريع الشديد بسبب حياة الفساد التي يعيشــها ، وأنه كان يجد هذا التقريع مهما تكرر أمرا طبيعيا ، ان اللحظة الحاضرة عنده ترفض كل الرفض أن تميز بفكرة اختلاطها التام بلحظات تلك الأحلام الخادعة التي لا يتأتى حل مغاليقهــا ، والتي يتساءل فيها النائم هل الذي يراه وهم أم حقيقة ، وينساق الى القول بأنه حقيقة وليس بوهم ، ثم ينتهي

على الحالين بفتح عينيه وهو مستيقظ .

تابع سيره فى شوارع تكاد تخلو من الناس ولكن تمتلىء بتيارات الرياح ، فيصدها عنه باحناء رأسه ، واتجه وهو مثقل بالنعاس ، فكأنه يمشى وهو نائم ، نحو الفندق ، أرقى فنادق المدينة ، حيث اعتزم قضاء ليلته .

كان يسير أمامه رجل مقوس الساقين يتمايل على الجنبين فى مشية بحارة السفن وهو يحمل عصى طويلة تنتهى بجذوة يشعل بها مصابيح الغاز فى الطرقات .. ما الذى دهاه ، ما الذى يعتلج فى قلبه ، ما هذه النار التى يتكوم عليها رماد تعبه وارهاقه فلا يتعالى منها لهيب ساطع وانما تظل تتقد فى باطنها بعبوس كأنه اتقاد الجحيم ، هس هس ، لا تفتح فمك ، لا تنطق بكلمة ، الجم لسانك ، كان بوده أن يسير هكذا طويلا فى وداعة ضوء الشمس الغاربة عبر الشوارع المألوفة له ، ولكنها أطبقت عليه بضيقها وتشابهها فما لبثت خطواته أن ساقته الى فندقه .

مصابيح الغاز فى قمة المدينة أضيئت لتوها ، وهذا هو فندقه ، تعرف على تمثالى الأسدين الرابضين على جانبى مدخل الفندق ، بقيت صورتهما فى ذهنه ، كان يخاف منهما وهو صبى ، وجدهما لا يزال كل منهما مصوبا خشمه نحو الاخر ، كأنما يريد أن يعطس ولكن ما بال حجمهما قد تضاءل كثيرا ، ومر طونيو كروجر بينهما ليدخل الفندق .

ولأنه وصل الى الفندق سعيا على قدميه دون أن يترجل عن عربة شأن سادة الناس فقد كان استقباله غير محاط بمراسم الاهتمام التى يحظى بها زبائن هذا الفندق .

استقبله البواب ورجل آخر مكلف بالحفاوة بالقادمين، يرتدى سترة سوداء ولا ينفك يبنصر فى كل يد يدفع عن معصمها كم القميص لكى يدخل الى ذراع سترته ، ألقيا عليه نظرة متفحصة من قمة رأسه الى أخمص قدميه ناطقة ببذل جهد لتخمين مقامه ومركزه فى المجتمع، وتقدير مدى الاحترام الذى ينبغى له أن يلقاه فى الفندق، وارتدت اليهما هذه النظرة عاجزة عن التخمين ، اذن سيكون استقباله بقدر معتدل من الأدب والحفاوة وجاء العامل المكلف بخدمة النزلاء وتقديم ما يطلبون من الخمور وهو رجل تبدو عليه الوداعة ، انسدل شعر رأسه فغطى فوديه فى لون يجمع بين البياض والاصفرار ، يرتدى سترة تلمع من فرط القدم وخفا لا يسمع له وقع على الأرض ، محلى بأنشوطة عريضة وقاد طونيو الى الطابق الثانى وأدخله حجرة لها أثاث حسن ، من طراز عتيق .

من وراء النافذة وتحت ضوء يخافت به المغيب يمتد منظر خلاب ، يذكرك بالقرون الوسطى ، أفنية وسقوف محنية وكنائس لها عمارة عجيبة ، يقع الفندق فى جوارها، ظل طونيو كروجر واقفا برهة أمام النافذة ثم انثنى فجلس على الأريكة الفسيحة ، عاقدا ذراعيه على صدره ، مقطبا حاجبيه ثم شرع يطلق صفيرا خفيفا من بين شفتيه . جاءوا له بمصباح وأحضروا له حقائبه ووضع العامل الوديع بحركة لا تنم عن الاهتمام فوق منضدة سجل الفندق الذى تقيد به أسماء الوافدين عليه ، انحنى عليه طونيو كروجر ومال برأسه الى جنب وخط به كتابة يقارب شكلهـا شكل اسمه وصنعته وموطنه ، ثم أمر بأن يعد له طعامه ، وبقى وهو جالس فى ركن الأريكة يلقى نظرة تائهة فى الفضاء ، وجىء

له بالطعام ووضع أمامه فمكث زمنا طويلا دون أن يمسه ثم تناول بعض لقيمات ، ثم ظل قرابة ساعة يتمشى جيئة وذهابا فى الحجرة ، يتوقف أحيانا ويغمض عينيه ، ثم خلع ثيابه ببطء ورقد فى فراشه . نام طويلا ، تطوف به أحلام مختلطة ملأى بالحسرات والأشواق المبهمة .

استيقظ فرأى حجرته يغمرها النور ، فوجىء بمنامه هذا فأسرع يتذكر أين هو ، ثم نهض ليزيح ستار النافذة، الصيف يولى فالسماء فى زرقة بدأت تشحب ، تعبر بها قطع رقيقـــة من السحاب تمزقها الرياح ولـــكن ضوء الشمس كان يغمر المدينة التى كان بها مولده ، استعد للخروج فبذل فى العناية بمظهره صبرا لا يبذله عادة ، واتقن بكل جهده استحمامه وحلاقة ذقنه ، فكانت له جلوة تعمدها كأنما اعتزم أن يزور أناسا فى قمة الرقى ، والتمسك بقواعد السلوك ، يريد أن يروا فيه أحسن مثال على الأناقة الكاملة ، وظل وهو يرتدى ملابسه ينصت الى دقات قلبه الوجل .

ضوء النهار خارج الفندق ، ما أقوى سطوعه ، كان خليقا بأن يشعر بشىء من الراحة والاطمئنان لو أن الضوء كان كما بالأمس ضوء المغيب الخافت الذى يسدل العتمة على الشوارع ، أما اليوم فلا مناص من أن ينكشف لأعين المـــارة جميعا ، هل سيقابل يا ترى بعض معارفه فيستوقفونه ويلاحقونه بأسئلة يضطر الى الاجابة عليها : كيف قضى ثلاث عشره سنة بعيدا عنهم ، ولكن لا ، والحمد لله ، لم يعرفه أحد من المـــارة ، حتى الذين يعرفونه لن يتعرفوا عليه حين يرونه ، حقا أنه خلال هذه الغيبة الطويلة قد تغير شكله ، وكان اذا

تأمل صورته فى المرآة ، بشعر أنه يتخفى بأمان وراء قناع ، هو وجهه الذى عركته الأيام قبل الأوان .

طلب فطوره وبعد ان تناوله نزل ومر نحت نظرة تقيس قدره يصوبها له البواب والرجل المهيب لابس السواد واجتاز الدهليز ومرق بين الأسدين وبدأ يتكشف للهواء الطلق .

الى أين يذهب ؟ لا يدرى ، حاله اليوم مثل حاله بالأمس ، يعجب بما يحبط به من مظاهر الاصالة العتيقة والألفة المنصلة منذ ماض سحيق ، البادية على السقوف المحنية والأبراج والبواكى والنافورات . لم يكد يشعر مرة أخرى بطس الريح لوجهه بقوة سائقا اليه من بعيد أحلاما بعطر وديع وحريف معا ، لم يكد يشعر بهذا كله متى ارتمت ستارة كأنما نسجها من الضباب فوق قلبه وغلفت أوتاره ، ارتخت عضلات وجهه وهدأت نظرته واخذ يوجه الى الناس والأشياء نظرة أصبحت فجأة باردة الى أين هو ذاهب ؟ ببدو له أن هناك علاقة بين الاتجاه الذى يقصده وتلك الأحلام الحزينة المليئة بالحسرات التى طافت به فى ليلته ، أنه متجه نحـــو السوق ، مارا تحت بواكى دار البـــلدية ، حيث أن الجزاربن يضعون فى الموازين ذبائحهم بأيد ملطخـــة بالدماء ، حتى وصل الى السوق ، تتوسطه النافورة العالية المدببة ، من الطراز القوطى ، هناك توقف أمام منزل بسيط، غير عريض بحيه، هو ومنازل كثيرةفى المدينة شبه واحد ، له أيضا سقف منحن ، وبقى واقفا أمامه مستغرقا فى تأمله حتى نسى نفسه ، قرأ الاسم المكتوب فوق الباب وجعل نظرته نعلق قليلا بكل نافذة ثم استدار ببطء لينصرف .

الى أين هو ذاهب ؟ الى بيته ، بيت أسرته ، ولكنه

سلك اليه طريقا ملفلفا ، امتد الى نزهة خارج أسوار المدينة ، فلا يزال الوقت متسعا أمامه ، مر بالأسوار عند الطاحونة وعند حى هولشتين وهو يكبس قبعته بقوة فوق رأسه لئلا تطير من دفع رياح هوج ، تعلو منها لأوراق الشجر خشخشة وصرير ، ثم كف عن النزهة خارج الأسوار حين اقترب من محطة السكة الحديدية ، شاهد قطارا تتوالى نفخاته وهو يسرع فى سيره ، تسلى بعد عرباته ومتابعة نظرته للرجل الجالس فى مؤخرة السبنسة ولكنه حين بلغ ميدان الزيزفون توقف عند احدى الفيلات الجميلة القائمة به وظل برهة طويلة يرقب الحديقة والنوافذ ثم طاوع هواه فأقبل يحرك باب الحديقة يمينا ويسارا حتى ارتفع صريره وبعد ذلك تأمل لحظة يده التى علق بها مسحة من الصدأ ، ثم انصرف وابتعد ومر من باب المدينة العتيق القصير الارتفاع وسار حذاء رصيف الميناء ، ثم شق صعودا من الميناء هذا الطريق الوعر حتى بلغ منزل أسرته . . لا يزال مزورا بكبرياء عن المنازل المجاورة وسطحه يعلو أسطحها ، لونه أغبر ومظهره ناطق بالجد كالعهد به منذ ثلاثة قرون ، وقرأ طونيو كروجر عبارة الدعاء المليىء بالوقار والتقوى المنقوش بأحرف منطمسة أعلى الباب ، وعمد الى جذب شهيق مديد ، ثم دخل الى الدار ، قلبه يدق بوجل ، خشية أن ينفتح أحد الأبواب فى الطابق الأرضى ويخرج منه أبوه مرتديا ثيابه التى يذهب بها الى مكتبه ، واضعا قلمه فوق أذنه ، سيتصدى له هذا الأب ويسأله بقسوة عن سبب فساد حياته ، من الطبيعى عنده أن يسمع منه هذا التقريع ، ولكنه مر أمام الأبواب دون أن يعترضه أحد ، الباب المزدوج المؤدى الى الطابق الأعلى لم يكن مغلقا بالضبة والمفتاح ، بل كان مردودا ،

وبدا له أن ترك الباب هكذا اهمال منتقد ، وان خيل له أيضا أنه هو نفسه أصبح لعبة يلهو بها أحد الأحلام العابثة التى تبدو فيها الحواجز كأنما تنهدم أمامك من تلقاء ذاتها فتسير فى طريقك بلا عائق بفضل حظ مدهش، سار فى الدهليز الفسيح المكسوة أرضه ببلاط مربع فكان لوقع أقدامه صوت مسموع ، المطبخ أمامه غارق فى الصمت ، لا نصدر منه نأمة ، ها هو ذا الجدار الذى يظهر فيه على ارتفاع كبير بروز يتألف هيكله من خشب خام ولكنه مدهون بعناية واتقان ، هذه هى حجرة الخادم ، لا سبيل الى الصعود اليهما الا باعتلاء درجات دائرة متتابعة كدرجات سلم ، وهذا المطلع تستغل به حجرة الخادم ، فليس فى الدهلبز مدخل لسلم آخر ، ولكن لا أثر لأثاث الدهليز — الدواليب الكبيرة والصناديق المحلاة بنقش بارز وشرع طونيو كروجر — ابن هذه الدار — يتسلق السلم الفسيح ، لشد على درابزين من خشب محلى بنقش غائر ومدهون بطلاء ابيض ، وكان اذا صعد درجة رفع يده عن الدرابزين ليعيد وضعها عليه وهو يصعد الدرجة التالية كأنما يحاول بتهيب أن سنشأ من جدبد بينه وبين الدرابزين المتين رغم شيخوخنه هذا الألف القديم الذى كان بينهما فى أيام خلت، وحين بلغ باب الطابق الأول نوقف عن الصعود اذ كان فوق الباب لافنة ببضاء مكتوب عليها بخط أسود (المكتبة الشعبية) مكتبة شعبية ، شغل معنى هذه العبارة فكره ، ما دخل الشعب وما دخل مكتبته هنا .. دفع الباب فسمع دوى صوت يهيب به (ادخل) فأطاع الأمر وقد امتلأ قلبه بالهواجس ، أجال بصره فروعه ما حدث من انقلاب الحال ، الطابق مؤلف من ثلاث حجرات متتالية ابوابها كلها مفتوحة على مصاريعها ،

على طول الجدران أرفف من خشب أسود نصطف فوقها كنب مجلدة على نسق واحد ، وفى كل حجرة يجلس رجل غلبان وراء مسند من الخشب كأنه مكتب ، منشغلا بكتابة كلام على ورق ، الرجلان الجالسان على بعد فى الحجرة الثانية والثالثة فقد رآهما لا يمنحانه الا نظرة خاطفة ، أما القريب منهم المشرف على الحجرة الأولى فقد نهض باندفاع من جلسته واعتمد بيديه على سطح المكتب ومد رأسه الى الأمام وكور فمه ورفع حاجبيه وأخذ يحدق فى الزائر القادم ، قال له طونيو كروجر دون أن يسترد نظرته الدائرة على رفوف الكتب :

— عفوا ، انني غريب عن هذه المدينة ، جئت لزيارتها ، أهنا اذن مقر المكتبة الشعبية ، أتسمح لى أن ألقى نظرة على محتوياتها .

أجابه الموظف وعيناه تطرفان بسرعة أشد :

— بكل تأكيد طبعا ، الدخول هنا بالمجان ، تفرج على راحتك ، هل تريد قائمة الكتب ؟

— شكرا ، سأعرف بسهولة أين أبحث عن طلباتى .

وأخذ يمر أمام الرفوف زاعما أنه يقرأ بتمعن أسماءها المطبوعة على الأغلفة ، وأخيرا تناول كتابا وفتحه تحت ضوء نافذة وقف بالقرب منها .- هذه هى الحجرة التى كانوا يتناولون فيها وجبة الفطور لا فى حجرة الأكل الكبيرة فى الطابق الأعلى ، وهى مزينة بصف من تماثيل بيضاء لأرباب الأغريق ، وكأن بياضها تنفثه زرقة كساء الجدران ، الحجرة التالية فى المكتبة كانت حجرة النوم ، هى التى ماتت فيها جدته لأمه بعد صراع مرير مع الموت رغم شيخوختها ، ذلك أنها كانت تحب الحفلات وتتعلق بالملذات وتتشبث بالحياة ومرة الأيام فاذا فى الحجرة ذاتها يلفظ أبوه آخر أنفاسه ، السيد المهيب المستمسك

بالأصول ، المكتسي وجهه دائما بمسحة من الكآبة ودلائل انشغال الفكر ، كما لا تخلو عروة سترته من زهرة برية، رقد طونيو عند قدمى الجثة ، عيناه ملتهبتان وقد أسلم قلبه بما وسعه الجهد والاخلاص ليغمره حبه لأبيه وحزنه عليه ، وركعت أمه أيضا بجانب الفراش ، أمه المتقدة العواطف ، تسيل الدموع من عينيها ، ثم اذا بها بعد وقت ليس بالطويل تقترن بهذا الفنان من أهل الجنوب وترافقه فى رحلاته الى بلاد ذات سماء زرقاء ، أما الحجرة الثالثة فى المكتبة ، آخر الحجرات ، المزدحمة الآن بالمجلدات تحت حراسة رجل غلبان فقد كانت لوقت طويل حجرته الخاصة ، هى التى يأوى اليها اذا رجع من المدرسة بعد أن يقوم بجولة فى المدينة كالتى قام بها اليوم منذ قليل ، فى ركن من الحجرة مكتبه ، فى درج منه يخفى أوائل قصائده ، صياغتها فجة بسبب اندلاق عاطفتها ، ولكن شجرة الجوز ، ما الذى جرى لها ، وجف قلبه فجأة ، والقى بنظرة من النافذة ، الحديقة أصبحت خرابا ولكن شجرة الجوز لا تزال فى مكانها ، ولا تزال أوراقها تخشخش فى مهب الريح ، ترك نظرته تلم من جديد بالكتاب الذى تحمله يده ، مختارات من الشعر يعرفهما حق المعرفة ، مشت نظرته فوق الأسطر السود يقرأ الشعر بيتا بعد بيت ، ينبثق من الكلمات فيض لفن رائع يتصاعد بفضل وقوة الابداع وبلوغه الذروة التى يحدث عندها فينا أثره بأن تشتد قبضته علينا ثم تطلقنا على نحو يبرهن به من جديد على براعته . أعاد الكتاب الى الرف وهو يقول فى سره ، هذا شعر حسن ، ثم استدار فلحظ ان أمين المكتبة لا يزال واقفا وعيناه تطرفان أيضا على نحو ينم أنه يهم بالكلام ثم يتراجع بنصيحة من شكوك يتداولها

فى ذهنه . قال له طونيو كروجر :
ــ لديكم كتب قيمة ، القيت على الرفوف نظرة سريعة ، شكرا لك يا سيدى ، انى منصرف واستودعك الله .

ثم اتجه الى الباب ، لا يريحه الا أن يخرج منه خلسة ، فقد كان واثقا أن أمين المكتبة سيظل برهة أخرى واقفا وعيناه تطرفان .

انقطعت الآن رغبته فى متابعة استكشافاته ، يكفيه أنه زار بيت الأسرة ، ففى الطابق الأعلى الذى يؤدى الى حجراته الفسيحة دهليز يزدان بالأعمدة يسكن أناس غرباء ، أدرك ذلك فقد رأى أن السلم انتهى الى باب نصفه من زجاج لم يكن موجودا أيام صباه وقد كتب فوقه اسم ما .

انصرف واجتاز الدهليز فرن فيه وقع خطاه وغادر بيت الأسرة ، وفى ركن مطعم بلع وهو غارق فى أفكاره طعاما غليظا دسما ثم عاد الى الفندق . قال للمستخدم صاحب السترة السوداء :
ــ حققت رغبتى فى زيارة المدينة ، وسأسافر هذا المساء .

أمر أن تعد له فاتورة الحساب وعربة تنقله الى الميناء ليركب السفينة المبحرة الى الدانمرك ، ثم صعد الى حجرته وجلس الى المنضدة وظل فترة متجمدا فأدار ظهره مسندا خده الى كفه ، ملقيا الى السجادة نظرة تائهة ، وبعد ذلك دفع حسابه ورتب حقائبه وجاءه خبر بأن العربة قد وصلت فى الساعة التى حددها فاستعد للنزول وجد المستخدم صاحب السترة السوداء فى انتظاره فى أسفل السلم قال له وهو يدفع بينصريه كمى قميصه فى ذراعى سترته .

ـــ لا تؤاخذنا يا سيدى اذا اضطررنا لاحتجازك لبرهة وجيزة ، وأن السيد سيهاس صاحب الفندق يريد أن يقول لك كلمتين ، هذا اجراء شكلى ليس الا ، انه وراء هذا الحاجز ، فتفضل واصحبنى ، انك لن ترى أحدا غير السيد سيهاس صاحب الفندق .

وقاده بحركات عديدة الى نهاية البهو حيث وجد السيد سيهاس فى انتظاره فعلا ، وطونيو كروجر يعرفه منذ صباه ، رجل قصير بدين ، مقوس الساقين ، شعره القصير الذى يزحف الى صدغيه قد دب فيه الشيب ، لا يزال يلبس كالعهد به من قديم قلنسوة من صوف أخضر ، لم يكن وحده ، بجانبه وأمام درج للكتابة مثبت بالجدار وقف شرطى له خوذة تعلو رأسه ، ويده اليمنى من داخل القفاز الأبيض تضغط على ورقة مكتوبة بحبر متعدد الألوان موضوعة فوق سطح الدرج ، استدار الى طونيو وصوب اليه نظرة الشرطى الشريف الأمين كأنه يتوقع من طونيو أن يتمنى من وقع هذه النظرة أن تنشق الأرض وتبلعه .

نقل طونيو نظرته بين الرجلين وآثر الصبر والتريث الى أن يسمع ما يقولانه له .

أخيرا سأله الشرطى بصوت عريض وسرعة معتدلة:

ـــ أقادم أنت من ميونيخ .

رد عليه بالايجاب فعاد الشرطى يسأله :

ـــ أذاهب أنت الى كوبنهاجن .

ـــ نعم سأسافر الى مصيف على شاطىء البحر فى الدانمرك .

ـــ مصيف على البحر ، طيب ، أرنا مستندات اثبات شخصيتك .

ونطق بكلمة « أرنا » بنغمة فوز عظيمة يسعده كل

السعادة .

استغرب السؤال فأبعد شيء عن خاطره هـذه المستندات التى تثبت شخصيته ، أخرج المحفظة التى يحملها فى جيبه وفتشها فلم يجد بها الا فواتير تم سدادها وأوراقا من مسودات طباعة لقصة من تأليفه حملهـا ليصححها حين يستقر فى المصيف . لم يكن معه مستند يثبت شخصيته ، انه يكره كل صلة بالسلطات الحكومية ولم يطلب منها قط أن تصدر له جواز سفر . فقال :

— آسف ، اننى أتنقل وليس معى مستندات تثبت شخصيتى .

أجابه الشرطى :

— آه ! اذن ما هو اسمك يا ترى ..

ذكر له طونيو اسمه فقال الشرطى وقد تصلبت قامته فجأة واتسع منخراه الى آخر مدى :

— أهذه هى الحقيقة .

— نعم ، هذه هى الحقيقة .

— وما هى صنعتك يا ترى ..

ابتلع طونيو غصة حلقه وأبان عن صنعته بلهجـة حادة قاطعة .

رفع السيد سيناس رأسه ونظر اليه باستغراب وقال الشرطى وهو يتنحنح :

— اذن أنت تقرر بأنك لست هذا الرجل الذى اسمه.

ونطق الشرطى باسم ولكنه تلعثم ، فاسترشد بالورقة المكتوبة بحبر مختلط الألوان فاذا به ينجح بفضل تمهله فى نطق اسم عجيب فى تتابع حروفه وفى جرسه الرومانسى الذى يتجمع فيه — كأنما للمعابثة — جرس أسماء من شعوب متعددة ، لا عجب أن طونيو نسى هذا الاسم بعد لحظات قليلة ، واستطرد الشرطى يقول :

ـــ هذا الرجل تبحث عنه شرطة ميونيخ لأنه متهم بالنصب وجرائم أخرى ، ولعله هرب الى الدانمرك اذن أنت باقرارك لست هذا الرجل ..

ـــ اقرار أو لا اقرار .. لست هذا الرجل .

وهز طونيو كتفيه اعرابا عن ضيقه بهذا العبث . فكانت لهذه الحركة وقع ملحوظ على الرجلين . فقال الشرطى :

ـــ على رسلك ، لا تنس انك لم تبرز لنا أى مستند تثبت لنا شخصيتك .

تدخل السيد سيناس عاملا على تهدئة الجو وقال :

ـــ كل هذا الاستجواب ما هو الا اجراء شكلى ، لا شىء غير ذلك . ينبغى لك أن نذكر أنه موظف يؤدى واجبه المفروض عليه ، فحبذا لو استطعت ان تثبت لنا شخصيتك بمستند .

وصمت ثلاثتهم ، هل ينهى هذه الواقعة بأن يكشف لهم عن هويته ويقول للسيد سيناس أنه ليس نصابا ، مصدر رزقه مجهول ، ولا من رجال الغجر ، مولده فى عربة خضراء وانما هو ابن المرحوم السيد كروجر ، القنصل ، انه من أسرة كروجر ولكنه لم يشعر برغبة فى الافصاح ، يكفيهم أنه ذكر لهم اسمه ، فرجال الشرطة على كل حال مسئولون عن حفظ الأمن ، ولهم الحق فى استجوابه ، بل انه يقرهم عليه الى حد ما ، ولكن لماذا يخبرهم عن أصله وفصله . ما جدوى ذلك ، هز كتفيه من جديد وألجم لسانه .

سأله الشرطى :

ـــ وما هى هذه الأوراق التى وجدتها فى محفظتك .

ـــ مسودات مطبعة تنتظر التصحيح .

ـــ كيف ، دعنى أراها :

مد اليه الأوراق ، فردها الشرطى على سطح الدرج وشرع يقرأها واقترب منه السيد سيناس يشترك معه فى القراءة ، وبقى طونيو يطل من فوق كتفيهما ليرى مدى مضيهما فى قراءة القصة ورأى أنهما بلغا فقرة صاغها بتوفيق يتحقق به وقع الأثر المطلوب على القارىء ، وشعر بالرضاء على نفسه وقال :

— تريان أن هذه القصة تحمل اسمى ، فهى من تأليفى أنا وسننشر عما قريب ، أواضح لكم هذا الكلام .

قال السيد سيناس بلهجة قاطعة :

— طيب ، هذا يكفينا .

وجمع الأوراق وأعادها الى طونيو وقال للشرطى :

— هذا يكفينا يا بترسينى .

وكرر هذه العبارة بعزم وسرعة وعيناه نطرفان خلسة ويهز رأسه دلالة على أنه رافض أن يقول أو أن يسمع كلمة أخرى ، وأضاف :

— ينبغى أن لا نحتجز هذا السيد أطول من ذلك فالعربة تنتظره ، وأناشدك يا سيدى أن تغفر لنا ازعاجنا لك قليلا ، ان الشرطى فعل ما فعل تأدية لواجبه المفروض عليه وقد نبهته من فورى أنه يخطىء الهدف .

لطونيو سؤال يجمجم فى صدره :

— أتراني أصدق كلامك ؟

أما الشرطى فقد بدا عليه أنه غير مقتنع باجابة طونيو كل الاقتناع ، فأخذ يتحدث عن تحقيق ورد فيه ذكر هذا الرجل النصاب وحمله لمستندات زائفة . ولكن السيد سيناز قاد ضيفه عبر الدهليز وهو يكرر له اعتذاره وسار معه بين تمثالى الأسدين الى حيث تقف

العربة وقفل بنفسه بابها وهو يحيط طونيو بكل مظاهر الاحترام ، وقعقعت العربة الحنطور المثيرة للضحك بارتفاع سقفها واتساع بطنها وهى تتهادى بين صرير حديدها وارتجاج زجاجها وسلكت الطريق المنحــدر حتى بلغت الميناء .

هذه هى حكاية اقامة طونيو كروجر العجيبة فى المدينة التى كان بها مولده .

الفصل السابع

كان الليل قد أرخى سناره وارتفع وارتفع القمــر سابحا فى ضوء فضى حين خرجت سفينة طونيو كروجر الى عرض البحر ، وقف فى مقدمة السفينة متدثرا بمعطفه بسبب الرياح التى اشتد هبوبها ، وخفض بصره ليغوص به فى الأمواج الداكنة تجمع بين قوه البدن ونعومة الجلد ، تتواثب واحدة فوق أخرى ثم تتصافح فى اصطفاق يعقبه تفرق فى اتجاهات غير متوقعة ، يتلألأ الزبد فوقها فجأة ، ان نفسه كانت قد انكسرت قليلا للحادثة التى وقعت له فى الفندق ، وأين ؟ فى بلدته ، مسقط رأسه ، أرادوا القبض عليه لأنه نصاب ، ومع ذلك فانه يسلم بأن الذى حدث له كان له مبرر من بعض الوجوه ، ها هو ذا حين طلع الى السفينة أخذ ـ كما كان يفعل وهو صبى فى صحبة أبيه ـ يرقب البضائع المصدرة عند انزالها الى جوف السفينة العميق وسط صياح بحارة بمختلف لهجات أهل اسكاندنافيا ، بضائع لاتقتصر على بالات وصناديق بل فيها أيضا نمر من البنغال ودب من القطب الشمالى ، كلاهما محبوس فى قفص عليه عوارض واقفال غليظة ، مآلها ولا ريب الى سيرك فى الدانمرك ، تسلى بهذه المشاهد وتمتع بها ، وحين مرقت السفينة بين الشاطئين فوق مياه النهر كان قد نسى كل النسيان لقاءه بالشرطى بترسون واستجوابه له ، أما ما حدث له قبل ذلك : أحلامه بالليل المليئة بالأحزان

والحسرات والجولة التى قام بها فى بلدته ، مسقط راسه ، وشجرة الجوز العتيقة ــ كل ذلك عاد الى ذاكرته واستولى على قلبه .

ينفسح البحر الآن أمام السفينة انه يبصر الآن هذا (البلاج) الصغير الذى طالما أنصت فيه وهو صبى لتمتمة البحر بأحلام الصيف وراقب منه لمعة الضفار وأضواء الفندق الذى كان ينزل به هو وابواه ، ها هى سفينته تمخر الآن فى بحر البلطيق ، قاوم بادنــاء راسه رياحا عنيفة مملحة تهب على الوجوه طليقة واثبة فوق العوائق ، تصك الآذان وتصيب الرؤوس بدوار لذيذ وخدر خفيف ، فينسى المرء ما مر به من شرور وآلام وجرائر ، هذا هو حال طونيو ، كل ترق له كل عزم له ذاب فى نشوة هذا الخدر الذى سرى فى أعصابه، يصل الى سمعه هدير الأمواج واصطفاقها وتشنجاتها فيخيل اليه أنه يسمع اشتداد خشخشة أوراق شجرة الجوز ، وصرير باب الحديقة ، وظل هكذا سارحا فى أفكاره وحلكة الليل تتكاثف شيئا فشيئا .

ــ ما أبهى النجوم يا ربى !

توجه اليه بهذه الكلمات صوت أجش وله غنة ، كأنه ينبعث من جوف برميل ، انه يعرف هذا الصوت ، هو صوت شاب يتراوح لون شعره بين شقره وحمرة ، جاءت جلسته الى مائدة الطعام بجواره ، ثيابه بسيطة، أهدابه حمر ، له منظر رجل مشرق الطلعة ومقرور معا فكأنما عليه جلوه الخارج لتوه من الحمام ، حركاته تنم عن توتر أعصابه ومراقبته لنفسه ، يتناول كميات ضخمة من الجمبرى المقلى بالبيض ، ها هو ذا يستند الى سور السفنة بجوار طونيو ويرفع بصره للسماء وهو يقبض على ذقنه بين ابهامه وسبابته ، هو لاشك

فى حالة طارئة عليه ، يميل فيها الى التأمل والاستعبار ، ويجد عندها أن جميع السدود بين الناس قد انهدمت وأن القلب يفيض بأشجانه ويبوح بهـا حتى للغرباء وأن الفم ينطق باشياء لو صدرت منه فى غير تلك الآونة لأحس من أجلها بخجل شديد .

ـ تأمل قليلا هذه النجوم يا سيدى ، ها هى ذى فى مواقعها تتألق وتتلألأ وتتناثر حتى تملأ السماء ، قل لى بربك ، حين يرفع المرء بصره الى السماء وهو مقتنع بأن نجوما كثيرة حجمها أكبر من حجم الأرض مائة مره أفلا يمتلىء قلبه بالخشوع والاسنعبار ، نحن سكان الأرض قد اخترعنا التليفون والتلغراف وحققنا انتصارات العلم فى العصر الحديث ، نعم ، هذا حق ، ولكن حين نرفع بصرنا للسماء لا يسعنا الا أن نقر ونعترف بأننا لسنا سوى حشرات ، حشرات حقيرة ليس غير .

احنى رأسه على صدره بعد رفعها للسماء ، دلالة على خشوعه واستغفاره واستطرد يقول :

ـ نعم ، لسنا سوى حشرات .

وناجى طونيو نفسه قائلا : هذا رجل هيهات أن تكون له سليقة الأديب ، ثم استعادت ذاكرته على الفور نصا كان قد قرأه لأحد كتاب فرنسا يشرح فيه مفهومه للكون والناس والوجود وقال فى سره : ما هى فى نظرى الا ثرثرة فارغة ... أما عن ملاحظات جاره الشاب التى انبعثت من أعمق أعماق قلبه واحساسه فقد اجاب عليها بما وسعه واجب المجاملة ، ومضيا يتبادلان الأحاديث وهما مستندان الى سور السفينة ، يمدان نظرتيهما الى عباب ليل بهيم تتراقص عليه أضواء عابرة ، واتضح أن الشاب تاجر من هامبورج يمضى اجازته السنوية فى هذه الرحلة الترفيهية وكان من كلامه لطونيو :

ــ قلت لنفسى ، هيا ، جرب واركب السفينة الى كوبنهاجن ، وها انت ذا ترى اننى فعلت ، وكل الذى مر بى سرنى ، ولكن لا اظن انهم أحسنوا بتقديم طبق عجة البيض بالجنبرى فى وجبة العشاء ، فستصادفنا عاصفة هوجاء هذه الليلة ، هذا هو ما قاله لى الربان بلسانه ومن حشا بطنه بهذا الطعام الغليظ سيكون منظره اذا قامت العاصفة مثيرا للرثاء لا للضحك وحده .

نزلت هذه الثرثرة الفارغة على قلب طونيو بردا وسلاما وشعر بعطف وود لمحدثه وأجابه :

ــ نعم ، وجبات الطعام فى بلاد الشمال ثقيلة عادة ، ومن جرائرها البدانة والكآبة .

كرر الشاب وراءه كلمة الكآبة ونظر اليه باستغراب وسأله فجاة :

ــ أغريب أنت عن بلادنا .

ــ نعم ، اننى أنتمى الى بلاد بعيدة .

وأردف قوله باشارة من ذراعه تنبىء عن البعد ولكن تترك مداه غامضا ، أجابه الشاب :

ــ حقا لقد صدقت فى حديثك عن الكآبة ، وان هذه الكآبة تركبنى كأنما على الدوام ، وخاصة فى الليالى التى تماثل ليلتنا هذه ، حين تتلألأ النجوم فى السماء .

واحتمل الشاب من جديد ذقنه بين سبابته وابهامه ، وناجى طونيو كروجر نفسه قائلا :

ــ لا ريب أنه لا يجد وسيلة للفضفضة بمكنون نفسه الا بنظم الشعر ، ولكنه هو الشعر الذى ينظمه تاجر لا يخرج من يده الا أن يريق على الورق احاسيس قلبه فى تعبير خام ، مباشر .

وتقدم الليل واشتد عواء الريح فلم يعد احدهما يفلح

فى اسماع كلامه للآخر ، لم يبق الا الانصراف واللجوء الى الفراش ، هكذا فعلا بعد أن تبادلا تحية المساء .

تمدد طونيو كروجر فوق فراشه الضيق فى قمرته ، ولكن الراحة استعصت عليه ، أعصابه متوترة لتأثرها بعنف الرياح ولذع نفتها لخياشيمه ، وهصر قلبه تشوف فنمضى لاحساس وثيق يحل به فيسعده ، ثم ان رجة السفينة وهى تهوى من قمة جبل من الأمواج وقعقعة الرفاص وقد انفلت خارج الماء وتعترى أصابه بغتيان وميل الى القيىء ، فأتم من جديد لبس ملابسه وطلع الى ظهر السفينة ، ليستنشق الهواء الطلق .

سحب تمرق أمام القمر ، والبحر يتراقص والأمواج لا تقبل مكدرة متماثلة ، فالى مد البصر حتى نهاية الأفق وتحت ذبذبة ضوء باهت مشهد بحر ممزق معذب تجلده سياطلة خفيفة ، تتواثب منه السنة عملاقة كأنها السنة لهيب نار متأججة ، الأمواج تؤلف أشكالا مفرطة فى تباين الرسم تتجاوز غرابتها كل خيال ، تعلو قمة وتطل منها على هوة سحيقة والزبد الأبيض كأنما يطوح به فى كل اتجاه ذراع قوى جبار محب للمعابثة . والسفينة تتقدم بعناء شديد ، تشق طريقها وسط الضباب وهى تئن وتترنح على الجنبين ، يتسنى له بين الحين والحين سماع زمجرة الدب والنمر المحبوسين فى قفصهما فى قاع السفينة من شدة عذابهما من العاصفة . ها هو ذا رجل يحتمى بمعطف من الجلد وغطاء يلف به رأسه ، يحمل فانوسا مربوطا الى وسطه يذرع سطح السفينة جيئة وذهابا وهو يباعد بين ساقيه محافظا على توازنه بصعوبة ، وفى مؤخرة السفينة وقف الشاب القادم من هامبورج وقد تدلت رأسه من فوق سور السفينة وهو يعانى من دوار البحر عناء شديدا .وحين أبصر طونيو

كروجر التفت اليه وقال بصوت خافت متخاذل :

— أنظر يا سيدى الى نوره الطبيعة .

ثم ما لبث أن قطع كلامه واستدار ليحنى رأسه من جديد من فوق سور السفينة .

تعلق طونيو كروجر بحبل مشدود غاية الشد وأخذ يتأمل هذه العبوات المتجرة التى تطالعه بها الطبيعة ، فانبعثت منه صيحة جذل بدت له انها لقوتها قد طغت على هدير العاصفة واصطخاب الأمواج ، كأنما ترنم قلبه بنشيد ينظمه للبحر يجاجل فيه حماس الحب ، يا بحر ، يارفيق الصبى ، ها نحن نلتقى من جديد، بحاول بهذه الكلمات ان ينظم نشيده ولكن نظمــه انقطع ، لا خاتمة ولا شكل محدد له أنه ليس ابداعا متكاملا وليد تأمل فى سكينة ، ذلك آن قلبه فى تلك اللحظة كان لايشغله الا التمتع بالحياة .

مكث هكذا برهة طويلة ثم رقد فوق دكة من الخشب بجانب مرصد الربان وأخذ يتأمل السماء وضوء نجومها يلمع ويخفت ، حتى أخذته غفوة قصيرة ، رذاذ بارد من زبد الأمواج لفح وجهه فأحس فى تأرجحه بين اليقظة والمنام كأن يدا رفيقة تربت عليه .

بدت للعيون شواطىء من صخور طباشيرية تنحدر صفحتها بخط مستقيم فبدت تحت ضوء القمر كأنما تنتمى الى عالم الأشباح ، السفينة تقترب من جزيرة مصرية ، طغى النعاس من جديد على طونيو كروجر ، يستيقظ كلما خبط رذاذ مملح من زبد الأمواج صفحة وجهه فانشد من وقعه جلده ، وحين أصبح فى تمام اليقظة كان النهار قد أشرق بهواء منعش وضوء رمادى باهت ، وكان البحر قد هدأ ، وعلى مائدة العشاء التقى بالتاجر الشاب ورأى وجهه تطغى عليه حمرة الخجل طغيانا شديدا ،

خجل ولا ريب لأنه كشف فى سر الظلام عن مكنون قلبه ونطق بكلام يلام عليه لأنه قلد به الشعراء ، وأخذ الشاب يبرم شاربه الأشقر بأصابعه الخمس كلها ليرفع طرفيه ورمى الى طونيو تحية مقتضبة كأنها تحية الجند تنطق باعتزامه أن يتجنب طونيو بعد ذلك بحرص شديد .

ونزل طونيو فى الدانمرك ، وأقام فى كوبنهاجن ، يمنح البقشيش لكل من بدا له أنه يستحقه ، وكان اذا خرج من الحجرة التى استأجرها فى احد الفنادق تجول فى المدينة نحو ثلاث ساعات وهو يسترشد بكتاب دليل السياح الذى يظل يمسكه فى يده مفتوحا فكان تصرفه تصرف رجل غريب يزور المدينة ويريد أن ينتفع من هذه الزيارة ما أمكنه ، أطال النظر الى السوق الملكى الجديد وتأمل بتوقير اغلب الكنائس ووقف طويلا أمام التماثيل العريقة الرشيقة وصعد الى قمة البرج وزار فى الريف قصور النبلاء القديمة وقضى ليلتين فى ضاحية ريفولى الجميلة ولكن هذه المشاهد لم تكن فى حقيقة الأمر كل ما وعته نظرته ، اذ كان وهو يمر بمنازل بعضها يشبه المنازل العتيقة فى بلدته تمام الشبه يطالع على أبوابها أسماء مألوفة له منذ صباه ، تنم فى حسبانه عن طباع رقيقة وخلال كريمة وتنكتم فى الوقت ذاته أنينا وتحسرا على نعيم عرفته فى سالف الزمان ، يسير متأملا ماحوله، يستمد وهو غارق فى الفكر من هواء بحرى رطب أنفاسا طويلة تملأ رئتيه الوجوه التى كانت تتراءى له فى أحلامه العجيبة المليئة بالحسرة والألم التى طافت به ليلة أن بات ابان سفره فى بلدته موطن رأسه — هذه الوجوه يراها الآن من حوله ، العين لها الزرقه ذاتها والشعر له اللون الأشقر ذاته ، فهذه وتلك من جنس واحد ، متماثلة فى استدارتها ، وكان يحدث له وهو سائر فى

الطرقات أن تكفيه لمحة من عين لعابر أو جرس كلمة ينطق بها لسانه لكى يرتج قلبه ارتجاجا عنيفا .

هيهات أن يقوى على البقاء طويلا فى تلك المدينة المرحة النابضة بالحياة اذ كان ينتابه قلق وديع ومجنون معـــا بعضه من صنع الذكريات وبعضه وليد أمل وترقب ، من أسبابه أيضا لهفه علي أن يباح له أن يتمدد براحة فى مكان ما ، فى شاطىء مصيف مثلا ، ثم يكف عن القيام بدور السائح النهم الى المعرفة .

ركب السفينة مرة أخرى فأبحرت به نحو الشمال تحت سماء ملبدة بالسحب وفوق مياه داكنة بل ويميل لونها الى السواد . ومرت بالقرب من زيلاند واتجهت الى مدينة هلسنجور ولم تكد قدمه تطأ الأرض حتى استقل عربة سارت به قرابة الساعة بحذاء البحر فى طريق لا ينقطع ارتفاعه فوق الشاطىء حتى وصل الى هدفه، عنده وحده صدق تحقيق مطمحه،انه الفندق الصغير، ذو الجدران البيض والنوافذ الخضر ، يقوم وسط محلة من بيوت واطئة متزاحمة وبرج الفندق بكسوته الخشبية يواجـــه البلاج وســاحل السويد ، صرف العربة واحتل الحجرة الشرحة التى كانت محجوزة له وأخذ يستف متاعه فى دواليبها وقد اعتزم أن يقضى فى هذا الفندق فترة من الوقت .

الفصل الثامن

كان شهر سبتمبر قد انتصف ، ليس فى الفندق نزلاء عديدون ، تناول الوجبات فى الدور الأرضى ، فى حجرة الأكل الفسيحة ، سقفها محمول على عروق متوازية ونوافذها الطويلة تنفتح على الشرفة المسورة بالزجاج والمطلة على البحر ، تترأس المائدة صاحبة الفندق وهى امراة عانس ، شعرها أبيض وانسان عينيها باهت لم يتجدد له لون ، وخداها عليهما مسحة وردية ، صوتها خافت ، وكلامها سريع كأنه زقزقة عصافير ، لا ينفك لها حرص على أن يكون ليدبها بجلدهما الأحمر فوق مفرش المائدة وضع حسن لا يكربها ، يزاملها رجل شيخ ، مدكوك الرقبة ، له لحية رمادية مقصوصة كلحية البحارة ووجه يميل لونه الى الزرقة الداكنة ، أنه تاجر أسماك من أهل البلد ، ويعرف الالمانية ، يبدو عليه أنه يعانى من ضغط الدم وأن الفالج يتهدده فأنفاسه قصيرة متقطعة ، يمد بين الحين والحين سبابته المحلاة بخاتم ثمين نحو أحد منخريه ليسده فيسلك أنفاسه فى المنخر الآخر وهو ينفخها بقوة ولم يكن أقل من هذا اهتماما وحفاوة بزجاجة الخمر الموضوعة أمامه سواء فى غدائه وعشائه وفطوره ، لا نزلاء فى الفندق سوى ثلاثة من الشبان الأمريكان ، كلهم طوال ، هم فى صحبة أستاذ لهم دابه أن يعدل فى تستر وضع

، فوق أنفه ، ويلعب معهم الكره طوال النهار،
تلاميذه فشعرهم بين الحمرة والشقرة ، ينوسطه
فرق يقسمه على الجنبين بالتساوى ، وجوههم
متنزة جامدة ، معرفتهم بلغة البلد مقتصرة على بضعة
ألفاظ يدسونها فى كلامهم بالانجليزية لا للمشاركة فى
الحديث بل لاستقضاء مطالبهم على مائدة الطعام ،
وهم لا يشربون الا الماء وهو غير مثلج .
لم يكن بهفو أن تكون له على مائدة الطعام صحبة
تختلف عن هؤلاء الشبان ، أمنعه أن يخلو الى نفسه
فى سلام ، ملقيا سمعه الى مخارج الحروف الحلقية
فى اللغة الدانمركية وما تتضمنه أحاديث صاحبة
الفندق وتاجر الأسماك من حروف مد بينه أو مستورة ،
نوجه مرة أو مرتين بالكلام الى تاجر الأسماك وجعله
مقصورا على حالة الطقس ، ثم نهض ليعبر الشرفة
الى الشاطىء الذى كان قد رقد فوق رماله بالنهار
ساعات طويلة ، للجو هنا فى بعض الأحيان صفاء
لا يعهد الا فى الصيف ، البحر ساكن كسول ، أملس
السطح ، ملون هنا بصبغة بين زرقاء وخضراء ،
ملون هناك بصبغة تميل الى الاحمرار ، تتراقص
فوق مياهه أطياف أضواء فضية ، الأعشاب البحرية
ملقاة على الشاطىء وقد جفت ، ومجموعات من
قنديل البحر طافية فوق سطح البحر ، فى الجو شىء
من رائحة عطن وعفن وشىء من رائحة القار المطلى
به قارب الصيادين الذى كان طونيو يسند اليه
ظهره وهو جالس فوق الرمال على نحو يتيح لنظرته
أن تمتد فترى البحر أمامها فسيحا دون أن تلقطها
وتحتجزها شواطىء الدانمرك ، لا شىء يعنيه من
هذا كله ما دام يملأ رئتيه بنسيم بحرى رطب لطيف،

طاهر ، صاف .

وأقبلت أيام داكنــة ، أيام العــواصف ، أحنت الأمواج رؤوسها كالثور اذا استعد للنطح واندفعت فى هياج الى الشاطىء تخبطه بعنف وتنحط عليه من عل وتنثر فوقه الأعشاب والأصداف والحطام وعليها لمعة البلل ، ووسط جبــال الأمواج الشاهقة تحت سماء ملبدة بالسحب وديان فى خضرة باهتة يعلوها الزبد ، على حين ترى العين هناك ، حيث تختفى الشمس وراء السحاب بريــق ضوء مخملى أبيض وديع يكتسى به سطح البحر .

مكث طونيو برهــة وهو واقف ، تلفــه زمجرة الرياح ، وبأسره قعقعتها التى لا تنقطع ، جالســة للتعب والاجهاد ، للدوار وزلزلة الحواس ولكن آه، انه يحب ذلك كله ، استدار وانصرف ، بدا له ان كل شىء يحيط به قد أخذ فجأة يربت عليه بحنــان وديع ، وعطف دافىء ، ولكنه يعلم أن البحر من ورائه له نداء يلاحقه ، يضمنه تحياته ووعوده ، كأنما سمع هذا النداء بأذنيه فعلت شفتيه ابتسامة خفيفة .

قــد رحلته الى قلب الدانمرك عبر البرارى التى يجثم فوقها جو من الوحدة والوحشة ، ووصل الى غابات البلوط تتعالى أشجارها على السفوح وتتعاقب لمسافات بعيدة ، تلقفته الغابات وكان يجلس على الأعشاب ويسند ظهره الى شجرة بحيث يتراءى له من بين الشجر جانب من البحر ، يحمل اليه الريح أحيانا صوت اصطخاب الأمواج التى تتكسر على الصخور كأنه صدى سقوط ألواح من الخشب بعضها فوق بعض ، يوافيه من قمم الأشجار نعيق الغربان ، أجش موحش ، يتكرر بلا تنويع ، يسند طونيو كتابه

الى ركبتيه ولكنه لا يقرأ ، حتى ولو سطرا واحدا ، يمتعه ويسعده .

ان نغمة النسيان الكامل قد أخذته الآن بين أحضانها ، يخيل اليه أحيانا أنه تحرر من قيود الزمان والمكان وحلق فى الجو طليقا ثم يحس ــ ولكن فى لحظات عابرة فحسب ــ بألم مفاجىء يهصر قلبه، انها هبة قصيرة لاذعة لأشواق وحسرات، راقدة ، مبهمة فى أعماق قلبه ، فلتبق هكذا ، مبهمة ، لأنه من فرط فتور همته وسرحان فكره لا يجد اقبالا على بذل جهد لتحديد ماهيتها وتبين مصدرها .

ومضت أيام كثيرة على هذا النحو ، لو سئل كم هى لما استطاع أن يجيب ، لا يبالى أنه لا يعرف عددها ، الى أن جاء اليوم الذى حدثت فيه المصادفة، حدثت اذ الشمس ساطعة واذ هو بين جمع من الناس غرباء ، ومع ذلك فان هذه المصادفة لم تثر فى طونيو كروجر دهشة كبيرة .

بأن هذا اليوم بفجر يبشر ، بأن اليوم سيكون يوم عيد وبهجة ، كانت لطونيو يقظة من نومه مفاجئة فى ساعة مبكرة ، واستيقظ فوجد نفسه فريسة توجس مبهم لذيذ ، خيل اليه أنه يبصر أمامه احدى الخوارق زينة ساحرة من أنوار عاوية حجرته تطل منها على البحر نافذتها وبابها الزجاجى ، يتدلى وسطها ستار من الدانتيلا البيضاء فيجعلها قسمين : حجرة نوم وصالون استقبال ، كسوة جدرانها من ورق فى لون هادىء ، وأثاثها خفيف فى لون فاتح فهى حجرة يشعشع فيها الضوء ويعمها البشر ، الآن بدت لنظرته المخدرة بالنعاس كأنها لم تعد تنتمى الى الأرض ، اذ غمرها على نحو لا يصدقه العقل نور وردى مهفهف

لطيف يجل عن الوصف ، خلع على الجدران والأثاث صيغته الوردية وأضفى على الستارة شبها لوهج نار متوهجة الجمرات ، يلتمس منها دفء لذيذ ، مكث هكذا برهة قبل ان يفهم سر هذا الذى يحدث أمامه ، اذ القى بنظـرة من خلال الباب الزجاجى فرأى أن الشمس قد طلعت فى عز بهائها . أيام عديدة مضت والسماء ملبدة بالسحب والمطـر غزير ، اما الآن فكأنها ملاءة مشدودة ، لونها ازرق شاحب يتـلألأ صفاؤها فوق البحر وفوق البلد ، وها هو ذا قرص الشمس تعترضه أو تحيط به كسف من سحب فى لون الورد أو لون الذهب ، يرتفع بمهابة وجلال فـوق البحر وقد تموج بريقـه فكأنما سرت فيه رعشـة وانتقاد ، هكذا بدأ اليوم .

وهب طونيو كروجر وهو حائـر البصر وسعيد يلبس ثيابه على عجل ، وتناول فطوره قبل الجميع فى شرفة حجرة الأكل ، وسبح فى البحر مسافة طويلة ثم مشى ساعة على الشاطىء ، ولما عاد ابصر حشدا من سيارات كبيرة تقف امام باب الفندق ودخل حجرة الطعام فلمح فى الصالون المجاور حيث البيانو جمعا غفـيرا من الناس ، تشـهد ملابسهم بانتمائهم الى الطبقة البورجوازية الصـغيرة ، هم جلوس حول موائد مستديرة يشربون البيرة ويأكلون الساندوينش ويتحدثون فى حماس . جمع مؤلف من اسر بأكملها ، فيها الصغار والكبار ، ومعهم الأطفال أيضا .

ومدت مائدة الطعام ، غنية بشرائح من لحم بـين بارد مدخن ومملح وبين مشوى بنار الفرن ، فلمـا جلس طونيـو كروجر اليهـا سأل جاره عن هؤلاء الناس ، من يكونون . أجابه تاجر الأسماك :

ــ هم زوار من بلدة هلسنجور يبتغون النزهة وقضاء السهرة فى الرقص ، ليكن الله فى عوننا ، لن نهنأ هذه الليلة بنوم ، اذ لابد من دبدبة فى الرقص وخبط على الطبل وستمتد الهيصة ولا ريب الى مطلع الفجر .

هذا اجتماع بين أسر ، مرادها حفلة ونزهة معا ، انتهزوا فرصة اشراق الشمس وتقاسموا النفقة وجاءوا بالقوارب والسيارات . وبعد تناولهم طعام الافطار هنا سيخرجون لمتابعة النزهة ثم يعودون مع الغروب لقضاء السهرة فى الرقص ، سترى يا صاحبى ، لن يغمض لنا جفن هذه الليلة ، أجابه طونيو كروجر :

ــ سنجد لنا شيئا يبهجنا لحسن الحظ .

وانقطع الكلام برهة ، ربة البيت معنية بهيئة يديها المحمرتين على مفرش المائدة ، وتاجر الأسماك يسد منخارا وينفخ فى منخار ، والشبان الأمريكان ثابتة لهم وجوههم المكشرة وعادة شرب الماء غير مثلج،وفجأة وقعت المصادفة ، ها هو ذا هانزهانسن وهاهى ذى انجه انجبورهولم يدخلان حجرة الأكل أمامه، وكان طورنيو يميل بجذعه للوراء مستندا الى ظهر مقعده وقد سرى فى بدنه خدر لذيذ بعد تعب سباحته فى البحر ومشيته السريعة على الشاطىء ، وكان يأكل شريحة من سمك السالمون المدخن على شطيرة من خبز مقدد ، جلسته قبالة البحر ، وفجأة من خلال الباب المفتوح دخل الاثنان ــ وقد اشتبكت يده بيدها ــ فى خطو غير متعجل كأنهما فى نزهة ، هى كالعهد بها فى دروس الرقص أمام الأستاذ كناك، فى ثوب ينحدر الى سغ القدم ، فاتح اللون شفاف

مزين برسوم الزهور ، تلف حول كتفيها نلفيعة من قماش أبيض شفاف ترسم فتحتها مثلثا على الصدر يكشف عن رقبة فى نضارة الشباب ، لفت على معصمها شرائط قبعتها وتركتها تتدلى من يدها ، ربما زاد جسدها نضجا عن ذى قبل ، لها الآن ضفيرة بديعة دائره حول رأسها . أما هانزهانسن فهو هو لم يتبدل ، فى زى البحارة ، معطف أزرق أزراره ذهبية ، ياقته الطويلة العريضة الزرقاء تهبط فتغطى كتفيه وظهره وكان يمسك بده قلنسوته المماثلة أيضا لقلنسوة البحارة ويهزها من شرائطها ، وهو فارغ البال ، وأشاحت أنجه هولم انجبورج عينيها اللوزيتين ، ربما لأنها وجدت شيئا من الحرج أن نطالعها أبصار الجمع المحتشد فى حجرة الأكل ، أما هانزهانسن فقد ظل مصوبا الى المائدة نظرة تنم عن التحدى وأخذ يتفحص الجالسين واحدا بعد آخر على نحو فيه شىء من الاستخفاف والاستفزاز ، أطلق يد زميلته وزادت هزته لقلنسوته ليبدى لهم أى رجل هو ، وهكذا على صفحة يمدها بحر أزرق تتراءى لعين طونيو كروجر مر الاثنان فاخترقا حجره الأكل من أولها لآخرها واختفيا خارجين من الباب المقابل المؤدى الى الحجرة التى بها البيانو ، حدث هذا بعد الظهر بقليل .

نزلاء الفندق لا يزالون جالسين الى المائده ولكن القادمين للنزهة الجالسين فى الشرفة والحجرة المجاورة هبوا من مقاعدهم ثم لم يدخل أحد منهم حجره الأكل بل غادروا الفندق من الباب الجانبى ووصلت الى الأسماع أصوات مزاحهم وضحكاتهم وهم يركبون السيارات التى انطلقت واحدة بعد أخرى على الطريق

وتراخى صدى ضجتها قليللا قليلا .
سأل طونيو جاره :
— هل سيعودون للفندق ؟
أجابه تاجر الأسماك :
— نعم وكان الله فى عوننا ، قد استأجروا نفرا من العازفين وسترى ماذا سيحدث لنا ، وأشد البلاء بلائى لأن حجرتى تقع فوق بهو الرقص .
أجابه طونيو :
— تسلية ظريفة .
ستتاح لنا .
ثم نهض وخرج .
أمضى يومه كيفية أيامه ، جالسا عند الشاطىء أو فى الغابة ، فاتحا كتابا على ركبتيه وعيناه تطرفان لقوة الشمس ، لا يدير فى رأسه فى يومه هذا الا خاطرا واحدا ، هو أن الجماعة القادمة من المدينة ستعود للفندق بعد النزهة للاشتراك فى حفلة الرقص، كما توقع تاجر الأسمال ، صرف طونيو ذهنه عن كل شاغل الا ترقبه لهذه الحفلة ببهجة وتلهف ممض لم يعهده من قبل خلال سنى الموات التى مرت به ، حقا لقد حدث له مرة بفضل تداعى أفكاره أن اتجه ذهنه بعين الاحساس — ولكن خلال لحظة عابرة — الى أحد معارفه القدماء ، الى القصصى أدالبرت الذى كان يعرف ما يريده ، ويذهب الى المقهى ليهرب من الربيع .
ولكن طونيو ما لبث أن طرح عنه هذا الخاطر وهو يهز كتفيه استخفافا .
وحلت ظلمة المساء وطونيو كروجر جالس فى حجرته، ماذا بالطريق المؤدى الى الفندق يزخر من جديد -

بالحركة فقد عاد المساهمون فى النزهة بل انضم اليهم — قدر ما من مدينة هلسنجور — رفقاء آخرون ، على الدراجات أو فى السيارات ووصل الى سمعه صوت تجربة كمان وشبابة عزفها أخنف ، كل الظواهر تدل على أن حفلة الرقص ستكون ملعلعة .

وبدأ الأوركسترا الصغير عزفه (مارش) ووصلت نغمته الرتيبة خافتة الى سمع طونيو كروجر ثم تلا ذلك لحن الرقصة المسماة بالبولونية افتتاحا لحفلة الرقص ، وظل طونيو برهة جالسا فى حجرته ينصت للموسيقى ، ولكنه حين سمع لحن رقصة (فالس) نهض بهدوء وخرج من حجرته ، الطرقة التى ينفتح عليها بابها يخدمها سلم اضافى يؤدى الى باب جانبى للفندق ، يتيح الوصول الى الشرفة دون مرور باحدى حجرات الدور الأرضى ، سلك طونيو هذا الطريق بهدوء وتلصص كأنه يجوس خلال أرض محرمة ، يتحسس خطاه فى العتمة ، أسلم قلبه كله لسحر هذه الالحان التى لها سذاجة وهدهده لذيذة وهى تصل الى سمعه واضحة جلية . الشرفة خالية ومعتمة ، الباب المؤدى الى الصالون مفتوح ، والصالون يغمره نور منبعث من مصباحين كبيرين يوقدان بالبترول وتتضاعف قوته بفضل انعكاسه على مرآة مستديرة مثبتة فى كل مصباح ، انسل من الباب ، وهو يمشى على أطراف قدميه يدغدغ أعصابه شعور بلذة التلصص والقدرة وهو محتم بالظلام على تتبع حركات الراقصين تحت الأنوار ، وتلهفت نظرته على الظفر بمن جاء للبحث عنه .

اشتعلت الحفلة حماسا رغم انها لم تبدأ الا منذ قليل ذلك أن المشاركين فيها قدموا اليها وهم مشحونون

أصلا بالحماس لها بعد أن قضوا يومهم والبال خال فى صحبة لذيذة مع رفقاء يألفونهم وارتفع التكليف بينهم. اذا مد طونيو عنقه قليلا استطاع أن يرى حجرة البيانو وقد اجتمع بها عدد من رجال كبار السن يلعبون الورق وهم يدخنون ويشربون الخمر ، رجال آخرون جالسون على مقاعد كسوتها من القطيفة أما فى حلقات مع أزواجهم أو فى صف يحاذى الجدار ، لا صنعة لهم الا مراقبة الرقص ، يسند كل منهم كفيه فوق ركبتيه المنفرجتين وقد انتفخت أوداجهم علامة على الرضى ، أما الأمهات فكل منهن تضع طاقية صغيرة فوق رأسها وتعقد يديها فوق صدرها وتميل برأسها الى جنب ، كلهن منصرفات الى مراقبة أولادهن — زهورهن اليانعة — وهم يقفزون فى الرقص ويدورون .

وفوق منصة أعدت بجوار الجدار وقف أفراد الأوركسترا ، بين الآلات نفير يبعث نفسه بحذر وبعد امتحان وحساب كأنه يهاب جلجلة الصوت التى اختص بها ، ومع ذلك فقد أدى بنجاح بعض النغمات . وانقسم أهل الحفل ، اما اشتراك بين اثنين فى الرقص قفزا ودورانا وأما اشتراكهما والذراع فى الذراع فى مشية متراخية حول حجرة الرقص ، لا أحد يرتدى من الثياب ما يفرضه الاشتراك فى حفلة رقص أصيلة ، انما الكل فى ملابس يوم الأحد فى الصيف حين يكون قضاؤه فى نزهة خلوية ، فالرجال يرتدى كل واحد منهم سترة أهل الريف ، يدل مظهرها أن صاحبها كان يبقيها طول الأسبوع مصونة ليوم الأحد ، أما الفتيات فكل منهن ترتدى ثوبا فاتح اللون ، وفى خصرها صحبة من زهور برية وكان بين الحضور عدد من الصبيان الصغار فأخذوا يتراقصون بعضا مع بعض على هواهم

حتى حين ينقطع العزف . يفترق عن الحاضرين شخص هو بين الرجال نمط عجيب ، طويل الساقين يرتدى سترة حفلات الرقص الأصيلة ، فلهذه السترة ذيل يهبط الى الركبتين ، لاشك أنه من أعيان المجتمع فى الريف ، فهو يتباهى بالمونوكل الذى يزر عليها احدى عينيه ، وبتسريحة شعر فى خصلات ملتفة بفضل الكى ، لا شك انه يشغل منصبا هاما كمدير مكتب البريد مثلا ، واتخذ هذا الرجل سمة رئيس حفلة الرقص والمشرف عليها ، تحسبه تقمص شخصية هزلية مألوفة فى الادب الدانمركى ، هو مستعجل ، يتصبب عرقا وكأنما خلق ليؤدى هذا الدور ، تحسبه يغطس ويقب فى كل مكان فى الحفلة ، يتباهى بانهماكه فى السهر على النظام وهو يجوب البهو طولا وعرضا ويرفعه لجسده بمهارة حين يقف على أصابع قدميه ويخالف على نحو عجيب وضع حذائيه وهما مدببان ومن جلد لامع ، يرفع ذراعه فى الهواء ويصدر أوامره ويشير الى الاوركسترا ليأخذ فى العزف ، ثم يضرب يدا بيد ، كل هذا وشرائط الوشاح الضخم الملون المثبت حول كتكيه والمستحق له بسبب مكانته ودوره فى الحفلة تهتز وراء ظهره ، أما هو فيلقى بين الحين نظرة اعجاب واعتزاز الى هذا الوشاح ..

لا مجال للخطأ ، عين الشخصين اللذين مرا من أمام طونيو كروجر عبر لوحة من بحر أزرق صامت هما بذاتهما يمثلان له الآن من جديد ، أحس بفرح ورهبة معا ، كان هانز هانسن أكثر الاثنين قربا منه ، هو واقف بجوار الباب معتمدا بقوة على ساقيه وان مال جذعه الى الأمام قليلا ، وكان يأكل بحذر من قطعة كبيرة من (الجاتو) مكورا كفه تحت ذقنه لبلتقطالفتات.

أما انجه هولم انجلبورج — انجه الشقراء — فكانت تجلس بجوار الجدار ، ها هو ذا صاحب الوشاح رئيس الحفلة يتقدم اليها مزهوا بنفسه ، وانحنى برشاقة متعمدة ، احدى يديه دارت واستقرت فوق ظهره واليد الأخرى رفعها بلطف ووضعها فوق صدره ، علامة على انه يدعوها للرقص ، ولكنها هزت رأسها وأبدت اشارة تنم عن انها فى حاجة لاسترادا أنفاسها قبل ان تشاركه الرقص ، وانها تود أن تستريح قليلا فما كان من صاحبنا الا انه اتخذ له جلسة بجوارها .

تأمل طونيو هذه الفتاة وهذا الفتى اللذين اذاقاه من قبل عذاب الحب ، هانز وانجه ، ما أشد تأثره بهما ، لايعود السبب الى تفرد ملامحهما الذاتية او توحد ذوقيهما فى الملبس بل الى شعوره بالفارق بينه وبينهما من حيث العرق والنمط هما من جنس واحد ، الشعر الأشقر والعين فى زرقة النصل ، يتمثل لهفيهما كل ما تملكه الحياة من نقاء وصفاء ووثوق ، من تعال يجمع فى آن واحد بين البساطة والكبرياء ، وأخذ يراقبهما ، هانز فى زى البحارة ، يبدو أكثر من قبل جراة ومتانة ، عريض الكتفين ، مهضوم الخصر ، وانجه هولم انجبورج تضحك وتهز رأسها بمرح تختص به ، تمد الى عنقها يدا كيد فتاة صغيرة ، لاهى مفرطة فى الجمال ولا فى الرقة على حين انحسر كمها الشفاف، وفجاة هصر قلبه شجنا مخفق ، واذا به على غير وعى منه يتراجع ليختفى فى العتمة حتى لا يشهد احد عبث العذاب بملامحه ، واخذ يحدث نفسه : هل ترانى كنت نسيتكما ، كلا ، محال ، هيهات أن أكون قد نسيت ، لا أنت يا هانز ولا أنت يا انجه هولم الشقراء

كان من أجلكما اقبالى على العمل ، فاشتغلت وكنت اذا سمعت تصفيق الاعجاب من المستمعين نلفت خلسة حولى لأرى هل أنتما بين المصفقين ، أتكون يا هنز هانسن قد قرأت الآن دون كارلوس كما وعدتنى عند باب حديقة دارك لم أعد أطالبك بأن تقرأها ، فما يعنيك أنت من أمر ملك يبكى لأنه وحيد ، ينبغى ألا ترهق عينيك وتطمس بريقهما من فرط العكوف على قراءة أشعار تبعث على الكآبة ، ليتنى كنت مثلك ، فأبدأ من جديد نشأة مثل نشأتك ، لى مرحك وبساطتك ومعيشتك الطبيعية المنتظمة فيحبنى السعداء والطلقاء من الهموم ، لكنت اذن قد تزوجتك يا انجه أنجبور الشقراء وكان لى منك وليد يشبهك يا هانز هانسن ، اذن لكنت عببت من الحياة والبهجة والحب ، ناجيا من لعنة الكشف وعذاب الابداع ، تحيطنى ضروب من السعادة وأعيش كما يعيش أسوياء الناس ، ليتنى أبدأ مرة أخرى من البداية ، ولكن لا جدوى من هذا كله ، اذ ستكون حياتى الجديدة كالسابقة التى عشتها ، سيحدث لى من هذه كل ما حدث لى فى تلك ، فمقدر على صنف من الناس أن يضلوا عن الجادة القويمة التى يشقها ركب القافلة .

وانقطع العزف ، هى استراحة دارت خلالها المرطبات والمشهيات ، صاحب الوشاح تولى بنفسه حمل صينية ملأى بسلاطة الرنجة المدخنة ، وأخذ يدور بها على السيدات ، بل ركع أمام انجه هولم انجبورج وهو يقرب الصينية اليهما مما جعل وجهها يتورد من فرط السرور ، وبدأ من فى الصالون يلحظون هذا الفتى الذى يرقبهم وهو واقف بجوار الباب ، التفتت اليه وجوه مليحة توهجت من الرقص واتجهت اليه نظرات مندهشة

فاحصة واستقرت عليه ولكنه بقى مع ذلك فى مكانه ، وطافت به فى عين الوقت نظرة من انجه هُولم وهانز هانسن ، يكاد خلوها من المبالاة يشبه الازدراء . وخالطه شعور بأنه يتلقى من جهة ما فى الصالون نظرة مهمومة بالبحث عنه والعثور عليه فلما وجدته استقرت عليه ، لفت رأسه وفجأة التقت عيناه بعينى من أحس بتصويب نظرتها اليه ، هى فتاة شابة ، واقفة غير بعيد منه ، وجهها شاحب رقيق مستطيل ، لم ترقص كثيرا اذ لم يتلهف الشبان على مراقصتها ، كان قد رآها تجلس بجوار الجدار ، وحيدة تزم شفتيها ، هى الآن أيضا وحدها فى وقفتها ، لها ثوب فاتح اللون مهفهف كغيرها من الفتيات ، يكشف عن كتفين لهما عظام بارزة وعن رقبة نحيفة كأنما سقطت فى هوة بين كتفيها المنكودين ، حتى لتبدو هذه الفتاة الصموت كأنما أصابها شىء من قسوة الخلقة ، كفاها فى قفاز نصفى تبرز منه أناملها وتتلامس فى رفق وهى تضعها فوق صدرها المسحوق ، كانت تميل وجهها الى جنب وترمق طونيو كروجر بنظرة تجلله من رأسه الى قدميه ، تنبعث من عينين سوداوين غائمتين ، أشاح طونيو وجهه عنهما ، فهناك ، على قرب منه ، يجلس هانز بجوار انجه هولم ، يحسبه الناظر اليه انه أخوها ، تحيط بهما ثلة من الشبان لهم خدود موردة ، يأكلون ويشربون بين ثرثرة ولهو وتبادل معابثات بأصوات رائقــة ثم يضحكون بملء أفواههم ، أفغير قادر هو على الاقتراب منهم فيمازح هذا أو ذاك عند الخاطر فيكون جزاؤه ــ على الأقل ــ ابتسامة ، كم يسعده هذا ، يود من كل قلبه أن ينقدم اليهم ، اذن لعاد الى حجرته وهو أكثر سعادة ، شاعرا أنه أقام جسرا صغيرا بينه وبينهم ، أخذ يردد فى ذهنه

— على سبيل التجربة — كيف يكون كلامه معهم حين يمازحهم ولكن هيهات أن تجسر نفسه على النطق به ، اذن سيكون الحال كما كان دائما ، لن يفهمه أحد منهم ، واذا تكلم فسينصتون اليه بعجب واندهاش لأن لغته غير لغتهم .

آن أوان العودة للرقص ، وبدا لصاحب الوشاح نشاط كبير ، أخذ يجوب الحجرة فى عجلة ، يدعو الرجال الى مراقصة النساء وتولى بمعاونة الخدم ازاحة المقاعد ورفع الأكواب لتهيئة المجال للرقص ، وأخذ يصـــدر أوامره للعازفين ويدفع فى ظهور بعض الحائرين لعدم تجانسهم مع حلقتهم ليخرجهم من ربكتهم ، بذل هذا النشاط كله من أجل الاستعداد للرقصة القادمة وهى رقصة رباعية ، فكان لابد له أن يقسم الجمع الى حلقات مؤلفة أربعا أربعا .. ولما استبان لطونيو كروجر أن الرقصـة رباعية عادت الى ذهنه ذكريات قديمة فاحمر لها وجهه خجلا .

وعزفت الموسيقى وانقسمت الحلقـــات الرباعيـــة زوجين زوجين يتواجهان ويتبادلان التحية بالانحناء .. وتوالت أوامر صاحب الوشاح للراقصين .. رباه ، ان أوامره هذه المرة باللغة الفرنسية ، ينطق الحروف الأنفية بتأنق شديد ، لا مثيل له ، هذا واتجه انجبورج ترقص بالقرب من طونيو كروجر فى الحلقة الرباعية الدائرة فى رقصها بجوار الباب ، ها هى ذى أمامه تخطو وتسير ، وتلف وتدور ، الى اليمين واليسار ، الى الأمام والخلف ، من شعرها وثوبها الشفاف يصل اليه على تقطع عطر زكى ، فاذا به يغمض عينيه وقد استيقظ فيه احساس كان يألفه فى قديم الزمان ، احساس بسحر يستولى عليه برفق فيجده حلوا ومرا فى آن واحد ، أما

الآن فان مثل هذا الاحساس يطغى على قلبه ولكن لا يجد له هذه المرة الا لذة خالصة لا تقاوم ، ما حقيقة هذا الشعور ؟ هل هو الطموح ، هل هو الحنان ، هل هو الحسد والغيرة أم هل هو الاحتقار للنفس ، هل تذكرين رقصتنا يا انجه الشقراء وكيف سخرت منى حين زلت بى قدمى فهزأ الجميع من تخبطى وعجزى ، هل تسخرين الآن من الشهرة التى بلغتها ، لا ريب انك ستسخرين منى أيضا ، ولك حق الف مرة ، حتى ولو أبدعت عديدا من روائع الفن فلن تنقطع سخريتك بى ، وخطر بباله وهو يراقبها بيت من الشعر كان يأنس له فى وقت من الأوقات ثم نسيه منذ عهد طويل ، يقول هذا البيت :

أشتهى أن أنام فدعينى واذهبى أنت للرقص ، حلال لك ، كم هو خبير بهذا الاكتئاب الذى يستقطره أهل الشمال من هذا البيت من الشعر المتغلغل شجنه الى أعمق أعماقه .. نعم ، أن أنام ، أن يتحقق الطموح الى حياة بسيطة لا اعتماد لها الا على مشاعر لا تتحول قسرا وغصبا الى فعل وعمل ، الى تنفيذ ، الى رقص لابد منه ، بل تكمن فى لذة وتكاسل بين جنبيه — فان كانت هناك رقصة لابد له أن يهتم بالاستجابة الى الحاحها عليه واجبارها له على تأديتها بعناية كبيرة فما هى الا هذه الرقصة الخطيرة التى يتمثل فيها الصراع مع الفن دون نسيان كم هو مهين وسخيف أن ترقص والحب مستول على كيانك كله .

وفجأة انفلت عيار الرقص ودب فى الجمع حماس أهوج ، كانت الحلقات الرباعية قد انفضت وألف الراقصون والراقصات دائرة بالتماسك بالأيدى لتأدية رقصة تعتمد على الجرى ، يمرون أمام طونيو كروجر

على وقع لحن يدفعهم للجرى بسرعة جنونية والى اطلاق ضحكات عالية ، واشتبكت نظراته براقص وراقصه وهما يمران أمامه ، للفتاة وجه شاحب رقيق الملامح وكتفان ضعيفان لهما عظام بارزة ، وفجأة تعثر الاثنان قبالته وسقطا على الأرض أمام قدميه ، وكانت سقطة الفتاة من الشدة والعنف بحيث بدا أن اصابة خطيرة قد لحقتها، وكذلك زميلها ، لابد أن اصابته بليغة أيضا ، لأنه نسى زميلته كل النسيان وحاول أن ينهض وهو يدعك ركبتيه وتنطق ملامح وجهه بشدة ألمه ، أما الفتاة فكأنما فقدت وعيها فهى لا تزال مرتمية على الأرض ، حينئذ تقدم اليها طونيو كروجر وأمسك ذراعها برفق وأعانها على النهوض ، انها دائخة ، مذهولة ، تعسة ، ثم فجأة طغت مسحة وردية على وجهها الرقيق وتمتمت له وهى ترمقه بعينيها السوداوين الغائمتين : اشكرك ، اشكرك كثيرا ، قالتها باللغة الدانمركية فأجابها بلطف :

— يحسن بك الا تعاودى الرقص يا آنستى ، ثم صوب نظرته من جديد اليهما ، الى انجه انجبورج وهانز هانسن ثم غادر الحفلة وعاد الى حجرته ، من من نهش الحسرة لقلبه تملكه اعياء شديد ، أنهكته هذه البهجة الصاخبة التى لم يشارك فيها ، هذا هو العهد به دائما ، يقف فى ركنه منعزلا ووجهه يتوهج من أثر الحمى التى تسرى فى دمه ، متحسرا على أنه مختلف عن هذا الجنس الأشقر السعيد المتفجر بالحياة ، الممتع بها ، ثم ينصرف عن ركنه بهدوء ، كان يتوقع بوثوق أن يسعى اليه انسان ويقبل عليه ، أن تلحظ انجه انجبورج انصرافه فتتسلل من بين الراقصين لتلحقه وتضع يده على كتفه وتهمس له : عد وتمتع وكن سعيدا فانى أحبك .
ولكنها لم تأت اليه قط ، كلا ، مثل هذه الأشياء لا تحدث

أبدا ، نعم ، حاله الليلة كحاله دائما فيما مضى ، وهو الآن بحاله سعيد ، كما كان سعيدا بحاله من قبل ، لأن قلبه بقيت له حياته ، ولكن ما هذا الذى حدث له وهو يعبر الجسر بين ماضيه وحاضره فجعله على الحال الذى هو عليه الآن ، استكانة لها برودة الثلج ووحدة وانتباه كاشف وتكريس النفس للفن ولا ريب .

خلع ملابسه ورقد واطفأ النور ، يهمس لوسادته باسمين ينتميان الى الماضى وبكلمة شكر من قلب طاهر سمعهما بلغة اهل الشمال فى هذه الليلة ، تتمثل له فيها كل الذى اختص به طبعه من حب صادق اصيل وتطلع الى النعيم ، تتمثل له فيها معنى الحياة وبيت الأسرة ، معنى العواطف البسيطة الصادقة التى تستولى على القلب .

استعرض بخياله ماضيه منذ مغادرته لمسقط رأسه الى يومه هذا فتذكر المامة الوضيع بمغامرات الحواس والأعصاب والفكر وراى نفسه قد سحقها اتقاد الذهن وتأمل الذات ، نهشها واشلها قدرة البصرة على النفاذ للبواطن ، ضعضها تراوح التلج والجمر عليها فى لحظات الابداع الفنى ، هى عاجزة وضيعة ، يكربها وعى لها بأن الحدود القصوى تتجاذبها فهى تتخبط بين تقشف الورع وبذخ التهوات ، استوعبها تأنق ذوقها فافتقرت واستهلكها ضروب من الجذل عقيمة وحرارتها كاذبة مصطنعة ، فأصبحت هذه النفس ضالة ، منبوذة ، معذبة مهيضة الجناح عليلة .. حينئذ بكى من شدة الحسرة والندم .

هنا فى حجرته فى الفندق سكون وظلام ، يبلغ أذنه فى خفوت لحن رقصة الفالس كأنها تهدهد تفاهة الحياة .

الفصل التاسع

وفى بلاد الشمال انشغل طونيو كروجر بكتابة خطاب الى صديقته ليزافينا ايفانوفا حسب وعده لها بأن يوافيها بأخباره .

عزيزتى لبزافينا .. أمد بصرى من بعيد اليك وأنت سعيدة فى مرفاك الأمين كأنه الجنة على الأرض ، والذى سأعود اليه عما قريب ، اليك برسالة لا تغنى ولا ريب عن الخطاب الذى كنت أود أن أكتبه لك ، فهى اذن لن ترضيك ، ففى عزمى أن أجعلها مجملة بلا تفاصيل ، لا لأنه ليس لدى ما أحكيه لك ، بالعكس ، مرت بى حوادث أعدها من قبيل التجارب التى تعجم عودنا ، مثلا ، كادت الشرطة تقبض على ، وأين ، فى بلدى ، مسقط رأسى ، ولكن سأروى لك ذلك شفاها حين نلتقى .

يحدث لى الآن أن تمر بى أيام يكون فيها الكلام باجمال أفضل عندى من الكلام بالتفصيل ، ولعلك ياليزافينا تذكرين الى اليوم وصفك لى ذات مرة بأنى بورجوازى خائب ، بورجوازى طاش سهمه ، ارتضيت أنت لى هذا الوصف ساعة أن اعترفت لك بأننى أحب الحياة .. هذا الشىء الذى أسميه بالحياة ، وسؤالى لنفسى الآن هل كنت ندركين حينئذ كم كنت يا عزيزتى قريبة أشد القرب من الحقيقة ، وان هذا الحب منى للحياة التى أعيشها هو واتصاق بالبورجوازية شىء

واحد لا انفصال فيه بين الاثنين ، وقد أتاحت لى رحلتى أن أفكر فى هذه المسألة طويلا .

كان لأبى كما تعلمين طبع أهل الشمال ، هو رجل متين المبادىء متفكر ، مستقيم ، ميال الى الكآبة ، وأما أمى التى تجرى فى عروقها دماء أجنبية مجهولة فامرأة جميلة ، ميالة الى اللذة الحسية ، ساذجة ، متقدة العواطف ، خلية البال دائما ، تجمع كل هذه الصفات فى آن واحد ، وهى فوق ذلك ذات طبع متقلب ، والجمع بين هذين النمطين المتعارضين كان خليقا بأن يؤذن بسلالة تشذ عن بقية السلالات اما رقيا أو انحطاطا ، وكانت ثمرة هذا الجمع بين النقيضين فتى بورجوازيا ضل سبيله وطاش سهمه فلم يجد له حمى الا فى معبد الفن ، بوهيمى الطبع ، طموحه أن تكون له معيشة محترمة يقرها المجتمع مع أنه فنان تعذبه عقدة الشعور بالذنب ، فلاشك أن ضميرى الذى تتحكم فيه أعراف البورجوازية هو الذى يجعلنى أرى الحياة الفنية بكل ما فيها من جنون وعبقرية جديرة بكل ارتياب واستنكار، وهذا ما يجعلنى أحس بضعف وود نحو الانسان البسيط الطيب المريح بتجرده من الشذوذ ، وبأنه من أوساط الناس ، انسان محترم وان كان لا موهبة له ، اننى أقف بين عالمين ولا أنتمى لأى منهما وهذا هو سبب الألم الذى أعانيه ، أنتم معشر الفنانين تحكمون بأننى عضو أصيل فى المجتمع البورجوازى فى حين أن هذا المجتمع البورجوازى حكم باننى دخيل عليه حين أراد أن يسجننى ، وأن ، فى بلدتى ، مسقط رأسى ، هذا هو حكمكم وهذا هو حكمه ولست أدرى بأى الحكمين أنا أشد شقاء ، البورجوازيون أغبياء ، نعم ، ولكن أنتم الذين تعبدون الجمال وتحسبوننى بليد الاحساس مجردا

من الطموح ينبغى لكم أن تدركوا أن انسانا يصدق اتصافه بأنه فنان بفضل طبع تغلغل فى أعماقه فرضته أرومته وأقداره — يكون له مع ذلك ميل الى الايمان بأن لا شوق من حيث المتعة والقيمة يفوق شوقه الى الحياة البسيطة النى يألفها عامة الناس . اننى شديد الاعجاب بهذا الصنف من الناس المتكبر البارد الأعصاب الذى يحتقر البشر ثم هو مع ذلك لا يهاب المغامرة فى الطريق المؤدى الى قمة يعانق فيها الجمال الفذ الجهنمى، فعندى أن الشرط الذى يتوقف عليه ارتقاء الأديب الى قمة الشعر هو ابتلاؤه — مثلى — بحب بورجوازى للبشر ، للاشياء المعتادة البسيطة ، هذا الحب هو مصدر الدفء والطيبة والفكاهة ، أعتقد أن هذا هو عين الحب الذى قالوا عنه ان فاقده وان تكلم بكل لغات البشر والملائكة لن يزيد صوته عن نفخ بوق او رنين صاجات ، وأقول لك أن كل انتاج لى الى اليوم لا قيمة كبيرة له ، ولكنى سأحاول الاجادة ، هذا وعد منى لك يالبزافينا ، وصلنى هدير البحر وأنا أكتب لك الآن فأغمضت عينى لكى تجوس نظرتى خلال عالم لم يولد بعد ، ولم يتشكل بعد ، عالم بطلب أن يجد نظامه وشكله ، فاذا بى أرد البصر حسيرا عن أشباح لشخوص بشرية تقبل على وتناشدنى أن أقضى على الطلسم الذى يمنعها من الارنداد الى عالم الأحياء فيها أشباح مأسوية وأشباح هزلية ،وأشباح مأسوية هزلية فى آن واحد ، وهذه هى أكثرها جذبا لى ، ولكن أخفى وأعمق حب لى هو حبى للجنس الأشقر الشعر الأزرق العين الذى يجد السعادة كلها فى معيشة بسيطة حلوة مألوفة ، ولا يكن لك ياليزافينا ازدراء بحبى هذا ، فانه شهى ومثمر ، وينطوى على أشواق تهصر القلب وحسرة مغلفة بالاكتئاب ولكن هذا الحب هو السعادة التى لا حد لطهرها .



البوزيع فى ج. م. ع : مؤسسه الاهرام
البوزيع فى جميع الدول العربية :
الىركة الشرقيه للنشر والتوزيع بيروت ــ لبنان

مطابع الاهرام التجارية
رمم الايداع بدار الكتب
١٩٧٣/٤٦٦٤







الثمن فى ج٠ م٠ ع
عشرة قروش